السكن في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

إعداد الدكتور

أحمد نبيه المكاوي حجير

مدرس التفسير وعلوم القرآن الكريم

قسم الدراسات الإسلامية

كلية التربية ـ بنين ـ القاهرة ـ جامعة الأزهر

السكن في القرآن الكريم دراسة موضوعية

أحمد نبيه المكاوي حجير، قسم الدراسات، كلية التربية ـ بنين ـ القاهرة، جامعة الأزهر، مصر

البريد الإلكتروني: ahmedhagar.8@azhar.edu.eg

الملخص:

لفظ (السكن) تعددت استعمالاته وتلاحقت معانيه في مواضع متعددة من القرآن الكريم، فتارة يرد على المعنى الحقيقي وأخرى على المجازي، وقد دلت جميعها على سمو وإعجاز القرآن الكريم،

كما اشتملت الدراسة على بيان أن الله _ عز وجل _ هو الذي منح الإنسان القوة والمهارة في بناء البيت الذي يناسبه، وكذا هيأ لغيره من الكائنات الحية المواد المناسبة لعمل المسكن الذي يأويها لتستمر الحياة، فهو من النعم العظيمة التي امتن الله بها على خلقه، ومن مقتضى الإيمان بالله (عز وجل) الاعتراف بهذه النعمة وشكره عليها، وعدم الاغترار أو الانشغال بها عن مطلوب المنعم، كما تناولت الدراسة السكن في الدار الآخرة، كل هذا من خلال الوقوف على بعض الآيات القرآنية وبيان معانيها من كتب التفسير أو الحديث أو الفقه، وفي ضوء ما ذكره اللغويون.

ثم ذيلت البحث بخاتمة اشتملت على أهم النتائج المستخلصة وقائمة المصادر والمراجع.

الكلمات المفتاحية: (السكن ـ الحقيقي ـ المجازي ـ الاغترار ـ المواد المناسبة ـ نعمة ـ الدار الآخرة).

Accommodation in the Holly Quran

Ahmed Nabeeh El-Mkawy Hegeir
Studies Department, Faculty of Education for boys, Cairo, Al-Azhar University, Egypt
E-mail: ahmedhagar.8@azhar.edu.eg

Abstract:

The term “accommodation” has many uses, and its meanings have numerous occurrences in several places in the Noble Qur’an. Sometimes it refers to the real meaning and others to the metaphorical, and all of which indicate the lofty and miraculousness of the Noble Qur’an. The study also included an indication that God - the Almighty - is the one who gave man the strength and skill to build the house that suits him, and also prepared for other living creatures the appropriate materials to constitute the dwelling that accommodates them so that life continues, as it is one of the great blessings which Allaah bestows upon His creation. For those who believe in God (the Almighty), it is necessary to acknowledge this blessing and to thank Him for it, and not to be deceived or distracted from what the Donor wants from us. At the same time, the study dealt with accommodation in the hereafter through examining some verses of the Holly Qur’an and explaining their meanings from books of interpretation, hadith, or jurisprudence and in light of what was mentioned by linguists. Then the research was followed by a conclusion that included the most important findings drawn and a list of sources and references.

Key words: Accommodation, Real, Figurative, Deception, Appropriate materials, Blessing, The Hereafter

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين، وأنزل معه كتابه المبين هادياً ومبشراً ونذيراً ... صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره إلى يوم الدين. أما بعد...

فلم يحظ كتاب باهتمام بمثل ما حظي القرآن الكريم، ولم يُقدم كتاب من الهدى والرشاد للبشرية مثل ما قدم القرآن الكريم، ولقد قام علماء الأمة المخلصون في كل عصر بمحاولة الوقوف على بعض أسرار هذا الكتاب الخالد الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [1] وتدبر آياته، واستخراج لآلئه ودرره، باحثين عن إعجازه، ومهتدين بهديه، وما دفعهم إلى ذلك إلا رغبتهم في خدمة التنزيل العزيز، والتشرُّف بأن يكونوا إلى جانب مأدبة الله، وستبقى هذه الخدمة بإذن الله تعالى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وطمعاً في شرف الانضمام مع من يخدمون كتاب ربهم بقدر طاقتهم البشرية، سعيت واجتهدت في كتابة هذا البحث (السكن في القرآن الكريم)؛ للوقوف على طرف يسير من إعجاز القرآن الكريم، وأثره الواضح في معالجة القضايا الإنسانية.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره

تتمثل أهمية هذا الموضوع في تعلقه بالقرآن الكريم الذي يثرينا بآياته، ويجدد بنفحاته عزائمنا، فهو المنبع الصافي الذي ننهل منه ما يحقق لنا النجاح في الدنيا والفوز في الآخرة.

---

١) سورة فصلت، الآية (٤٢).

_ خلو المكتبة الإسلامية من بحث يقتصر على دراسة هذا الموضوع، فأردت أن أشرف بهذه الدراسة في رحاب القرآن الكريم، لعلي بذلك أضع لبنة في هذا الصرح الشامخ من بحوث الدراسات القرآنية.

_ الاهتمام باللفظ القرآني والوقوف على مقاصده وتنوع دلالته، من خلال دراسة لفظ "السكن" بمعانيه المختلفة، للوقوف على جانب من إعجاز القرآن الكريم وعظمته.

_ شرح القرآن بالقرآن، بتجميع الآيات المتحدة في المعنى في مكان واحد.

_ تجنب الخطأ في التفسير، من خلال اطلاع المفسر على مختلف الوجوه للفظ القرآني لكي يعصم نفسه من الوقوع في الخطأ.

_ بيان أن نعمة السكن والاستقرار في البيوت، والشعور بداخلها بالأمان والاطمئنان، من النعم الكبرى التي امتن الله بها على كثير من مخلوقاته.

_ السكن قد يفتن به الإنسان وينشغل به عن العبادة والطاعة، فتراه يُجهد نفسه في دنياه، يكد ويشقى، يَجمع ويدخر، يُوفر ويقترض، من أجل أن يؤمِّن لنفسه مسكنًا، ويبذل في سبيل هذا الكثير من ماله وصحته وفكره ووقته، من أجل إظهاره على أحسن حال، حتى إذا ما تمَّ بناؤه بدأ بعد ذلك عناؤه! في اختيار أثاثه، ثم بعد هذا كله تراه يتركه لورثته من بعده.

_ غرس العبرة والعظة في نفوس المعرضين عن منهج الله، وأنه سبحانه لو شاء لأصابهم بذنوبهم كما أصاب الذين من قبلهم.

الدراسات السابقة:

_لم أقف إلا على دراسة واحدة للباحث/ حزام بن سعد بن سحمان الغامدي، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، المملكة العربية السعودية، وهي بعنوان (السكن في القرآن _ دراسة بلاغية_)

قام الباحث من خلالها بالوقوف على بعض الكلمات التي تحقق فيها معنى الاستقرار ولو إلى حين، مثل (الرحم، المدينة، القرية، البيت، السجن،

القبر، بطن الحوت، الكهف) وهكذا، مع دراسة المسائل البلاغية التي تناولتها الآية، مثل الكشف عن خصائص التركيب والتصوير، والكشف عن النكت البلاغية لاختلافات الألفاظ في ضوء فهم السياق.

هيكلة البحث:

وقد جعلت هذه الدراسة في: تمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

أمّا **التمهيد**: فيشتمل على المقدمة، وأهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، وهيكلة البحث، ومعنى السكن في اللغة.

الفصل الأول: سكن الإنسان في الدنيا، وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: سكن آدم (عليه السلام) وزوجه للجنة.

المبحث الثاني: سكن البيوت.

المبحث الثالث: بيوت الخيام.

المبحث الرابع: سكن الظل.

المبحث الخامس: بيوت الجبال.

المبحث السادس: سكن المطلقة.

الفصل الثاني: مساكن الظالمين في الدنيا، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: من هلك بمسكنه.

المبحث الثاني: من هلك دون مسكنه.

المبحث الثالث: هلاك المساكن دون أهلها.

الفصل الثالث: مساكن الدار الآخرة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: مساكن المؤمنين وما يتحفهم الله به في الجنة.

المبحث الثاني: النار المقر والمقام لأهلها.

الفصل الرابع: سكن الحشرات، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: بيوت النحل.

المبحث الثاني: سكن النمل.

المبحث الثالث: بيت العنكبوت.

الفصل الخامس: السكن المعنوي وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الصلاة من النبي (ﷺ) سكن.

المبحث الثاني: الليل سكن والنهار معاش.

المبحث الثالث: الزوجة سكن.

ثم كانت خاتمة البحث التي اشتملت على؛ أهم النتائج والتوصيات، وأهم المصادر والمراجع وفهرس البحث.

منهج البحث:

اعتمدت في كتابة هذا البحث على المنهج التحليلي الاستنباطي، الذي يعتمد على الاستقراء والتتبع لآيات القرآن الكريم التي ورد فيها ذكر لفظ " سكن " ثم صنفتها.

_ أعطيت كل باب ما يتصل به من الآيات حتى يستطيع القارئ الإلمام بها في سهولة ويسر، وشرحت منها ما يتطلبه المقام.

_ قمت بتتبع أقوال المفسرين في الآية من أمهات كتب التفسير مستنبطاً ما فيها من نتائج وتحليلها.

إجراءات البحث:

وفي سبيل تحقيق ذلك كانت الخطوات التالية:

_ عزو الآيات الواردة في البحث إلى مواطنها في المصحف الشريف، بذكر اسم السورة ورقم الآية.

_ تخريج الأحاديث النبوية الواردة في البحث من كتب السنة المعتمدة، بذكر المصدر والجزء والصفحة ورقم الحديث، مع الإشارة إلى درجته من خلال أقوال أئمة هذا الشأن، وإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالإحالة عليهما.

_ التزمت ما فرضه عليّ البحث من الأمانة العلمية فنسبت كل قول إلى قائله، ووضعته بين علامتي تنصيص، وإن كان فيه تصرف أشرت إلى ذلك.

_ لم أقم بِلَيّ آية لإخضاعها لمسألة علمية، إنما كنت أقول أشار القرآن إلى كذا فيما أرى فيه إمكان الاستدلال بهذه الإشارة.

_ الرجُوع إلي المراجعِ المعتدة من كتبِ التفسيرِ، والحديثِ، وكذلك كتبُ اللغةِ.

_ تحقيق المسائل الفقهية متى عرض لي شيء منها، وبيان آراء العلماء، وإيضاح ذلك في الحواشي بالرجوع إلى كتب أحكام القرآن، أو كتب الفقه المذهبي وخاصة المشهور منها والمعروف.

_ الاعتماد في البحث على المصادر القديمة والحديثة ومتابعة ما نُشر حول الموضوع.

_ قمت بترتيب المصادر والمراجع وأعددت الفهارس الفنية لذلك.

وقد بذلت - في كل ذلك - غاية الجهد الذي منَّ الله عليّ به، فإن أصبت: فذلك بتوفيقه تعالى وعونه، وإن كانت الأخرى: فحسبي أني اجتهدت، ولكل مجتهد نصيب!

والله أسأل أن يعلمني ما ينفعني وينفعني بما علمني ويزيدني علماً، وأن يجعل ما أقوم به خالصاً لوجهه الكريم، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تمهيد
السكن في اللغة [1]

• مادة: (السين، والكاف، والنون) أصل واحد مطرد، تدل على الثبوت والاستقرار والهدوء، فهي مقابل الحركة والاضطراب.

فالسكون: ثبوت الشيء بعد تحرك، يقال: سكن المتحرّك سكوناً؛ أي استقرّ في محلّ ولم يتحرّك.

قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ... ﴾ [2] وفيها أقوال:

الأول: فأدخلناه في الأرض؛ كقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ...). [3]

الثاني: جعلناه ثابتا في الأرض. [4] أي مقره فيها.

والمعنى على كل: وأَنزلنا من السحاب ماءً بمقدار ما يكفي مخلوقاتنا، فأدخلناه في الأرض وأَقررناه فيها، حيث جعلنا في الأرض قابلية شربه

---

١) يراجع: جمهرة اللغة للأزدي (٨٥٥/٢)، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م، وتهذيب اللغة (٣٨/١٠) لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، ومعجم مقاييس اللغة (٨٨/٣) لأحمد بن فارس بن زكريا القزويني، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ومختار الصحاح لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر (١٥١)، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٢) سورة المؤمنون، جزء من الآية (١٨).

٣) سورة الزمر، جزء من الآية (٢١).

ويراجع هذا المعنى في الكشاف للزمخشري (٣/ ١٧٩)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/ ٢٤٦)، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٤) ذكره الزمخشري في الكشاف (٣/ ١٧٩)، والرازي في مفاتيح الغيب (٢٦٨/٢٣)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

وتغذى ما فيها من الحب والنوى، كما جعلنا بعض هذا الماء مستقراً في الأرض تتكون منه الأنهار والآبار والعيون، لتنعموا به بعد ذلك.

وهذا ما صرح به ابن عاشور في تفسيره فقال: " وأطلق الإسكان على الإقرار في الأرض على طريق الاستعارة. وهذا الإقرار على نوعين:

الأول: إقرار قصير مثل إقرار ماء المطر في القشرة الظاهرة من الأرض عقب نزول الأمطار على حسب ما تقتضيه غزارة المطر ورخاوة الأرض وشدة الحرارة أو شدة البرد، وهو ما ينبت به النبات في الحرث وتمتص منه الأشجار بعروقها فتثمر أثمارها.

الثاني: إقرار طويل مثل إقرار المياه التي تنزل من المطر، وتذوب من الثلوج النازلة فتتسرب إلى داخل الأرض فتنشأ منها العيون التي تنبع بنفسها أو تفجر بالحَفْر آبارا.[1]

وفى قوله تعالى: «فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ» إشارة إلى أمور:

أولها: استقرار الماء في الأرض ولزومه إياها، وجعلها سكنا له، يألفها وتألفه، فلا ينفصل أحدهما عن الآخر أبدا.

وثانيهما: إسكان الماء في الأرض، إنما هو لرسالة يؤدّيها في الحياة، شأنه في هذا شأن الإنسان، الذي أسكنه الله هذه الأرض، وجعله خليفة فيها

وهذا هو بعض السرّ في التعبير عن استقرار الماء في الأرض، بالسكن فيها.

وثالثهما: أن تعدية الفعل «فَأَسْكَنَّاهُ» بحرف الجرّ «في» الذي يفيد الظرفية- هذه التعدية تعنى جريان الماء في الأرض، ونفوذه إلى أعماق بعيدة فيها، وأنه بهذا يأخذ وضعا متمكنا منها، بحيث لا يعرض له من العوارض، ما يجليه عنها، أو يقطع صلته بها.[2]

---

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٨/ ٢٩)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس. بتصرف واختصار.

٢) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب (٩/ ١١٢٤)، الناشر: دار الفكر العربي – القاهرة.

وكل ما هَدَأَ فقد سَكَن، يقال: سَكَنَ الشيءُ يَسْكُنُ سُكوناً، فهو ساكن إذا توقفت حركته، ويقال: سَكَنَتْ نفسي بعد الاضطراب، أي هدأت. ومنه ساد السُّكونُ المكانَ؛ أي صار هادئًا، وسَكن الألمُ: خفّت حِدَّتُه، وسكن الغضبُ: ذهبت شدته. ويقال فلان لا يحرّك ساكنًا؛ أي لا يفعل شيئًا، وسكنتِ الرّيحُ بعد العاصفة، وسكَن البحرُ بعد الاصطخاب وهكذا؛ ومنه قوله تعالى: (**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ...)** [1]؛ أي إن يشأ الله الذي أجرى هذه السفن في البحر يُسكن الريح، فتَبْقَى السفن سواكن على ظهر البحر لا تجري.

- **ومصطلح السكن يستعمل في الاستيطان:**

قال الراغب: "السكون ثبوت الشيء بعد تحركه، ويستعمل في الاستيطان، نحو: سكن فلان مكان كذا، أي: استوطنه". [2]

وسَكَنَ بالمكان: أي أَقام به، كما في قوله تعالى ﴿ **وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ** ﴾ [3] وقوله تعالى ﴿ **وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ** ﴾ [4]

والإسكان: جعل الشيء في مسكن، والمسكن: محل القرار، وهو مفعل اسم مكان مشتق من السكون.

والسَّكَنُ والمَسْكَنُ: بفتح الكاف وكسرها: البيت، والمنزل؛ وسُمي بذلك لأن الإنسان يرتاح فيه من الحركة خارج البيت، والجمع مساكن، قال تعالى ﴿ **فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ** ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿ **وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ** ﴾ [6]

---

١) سورة الشورى، جزء من الآية (٣٣).
٢) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (٤١٧) الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.
٣) سورة البقرة، جزء من الآية (٣٥).
٤) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٦١).
٥) سورة الأحقاف، جزء من الآية (٢٥).
٦) سورة إبراهيم، جزء من الآية (٤٥).

السَّكْنُ: يطلق على الأهل الّذين يسكنون الدار ويقيمون فيها، يقال: سَكْن الدار، أي المقيمون فيها، والجمع سُكّان. وسُمي أهل البيت بالسَكْن؛ لأنهم يسكنون الموضع الواحد.

وفي حديث كعب عند خروج " يأجوج ومأجوج": " حَتَّى أَنَّ الرُّمَّانَةَ لَيَشْبَعُ مِنْهَا السَّكن. قيل: وما السَّكْنُ يا كعب؟ قال: أهل البيت". (١)

• **ومن المجاز:** أن يأتي مصطلح "السكن" ويراد به الطمأنينة أو الراحة والاستئناس؛ وهو كل شيء تسكُنُ إليه وتأنس به وتعتمد عليه من أَهل وغيره، ومنه قيل: المرأة سكن الرجل؛ لأَنه يميل إليها ويأنس بها ويعتمد عليها في كثيرٍ من أمور حياته ومعيشته، قال تعالى ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (٢)، وقال سبحانه ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾(٣)

•ومن الباب السكينة؛ بمعنى الطمأنينة، ومنه قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤) وقال سبحانه ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥)؛ أي الطمأنينة والهدوء في قلوبهم، وقال مخاطباً رسوله (ﷺ) ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (٦)؛ أي دعاءك رحمة رحمة وطمأنينة تسكن معه نفوسهم وتطمئن قلوبهم.

---

١) يراجع: كتاب الفتن لنعيم بن حماد (٥٨٩/٢) ح (١٦٤١)، باب خروج يأجوج ومأجوج الناشر: مكتبة التوحيد – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٢، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني (٢٣/٦)، الناشر: السعادة، والسنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها لأبي عمرو الداني (١٢٢٠/٦)، ح (٦٧٩) باب ما جاء في يأجوج ومأجوج، الناشر: دار العاصمة – الرياض، وذكره ابن كثير في تفسيره وعلق عليه بأنه "من أحسن سياقات كعب الأحبار، لما شهد له من صحيح الأخبار". (٥/ ٣٧٦) الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

٢) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٨٩).

٣) سورة الروم، جزء من الآية (٢١).

٤) سورة الفتح، جزء من الآية (٤).

٥) سورة الفتح، جزء من الآية (٢٦).

٦) سورة التوبة، جزء من الآية (١٠٣).

• **أمّا المَسْكَنة:** فهي ضعف وفقر وحرص على طلب الدّنيا، يقال: استكن الرجل؛ أي خضع وذل.

وهذا اللفظ لم يرد في القرآن إلا مع بني إسرائيل، قال تعالى ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (١) وقال عنهم في موضع آخر ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ (٢) أي أحاطت بهم الاستكانة والمهانة من داخل نفوسهم، نتيجة الخوف والرعب من أهل الإيمان.

• **الفعل (سكن) يتغير معناه حسب تعديته:**

_ إذا تعدى بحرف الجر (في)؛ دار معناه حول الاستقرار والإقامة، يقال: سكن في الدار؛ أي أقام فيها واستوطنها، ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (٣) أي فجعلناه ساكناً ومستقراً فيها.

وكذا إذا تعدى بالباء؛ كان بمعنى الإقامة والاستيطان، يقال: أسكنه المكان، وأسكنه بالمكان، وأسكنه في المكان؛ أي جعله يسكُنه أو يقيم فيه ويستوطنه، ومنه قوله تعالى ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ... ﴾(٤)، وسكن في اللّيل استراح: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ (٥)

_ وإذا تعدى بـ "إلى"؛ دار معناه حول الاطمئنان والاستئناس، يقال سكن إلى فلان؛ أي استأنس به واستراح إليه أو اطمأنّ إليه واعتمد عليه. قال تعالى ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾(٦) وقال سبحانه ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾(٧)

---

١) سورة البقرة، جزء من الآية (٦١).
٢) سورة آل عمران، جزء من الآية (١١٢).
٣) سورة المؤمنون، جزء من الآية (١٨).
٤) سورة إبراهيم، جزء من الآية (٣٧).
٥) سورة يونس، جزء من الآية (٦٧).
٦) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٨٩).
٧) سورة الروم، جزء من الآية (٢١).

_ وإذا تعدى بـ " عن" كان معناه البُعد والمفارقة، يقال: سَكَنَ عَنْهُ الوَجَعُ: أي فارَقَهُ.

ومن منظور قرآني؛ لا يأتي السكن في كل الأحيان ويراد به اتخاذ مكان للإقامة والمعيشة فحسب، بل قد يأتي بمعان مجازية مثل السكينة والشعور بالراحة والاطمئنان، كما سيتضح من خلال هذه الدراسة.

الفصل الأول
سكن الإنسان في الدنيا

يعتبر المسكن من أهم أولويات الإنسان التي تضمن له الاستقرار والحياة الكريمة، وتجنبه هموم ومشكلات لا حصر لها؛ فهو يكنه من أي ظروف غير ملائمة تهدد أمنه كاللصوص، أو صحته كالمطر والبرد والحرارة والريح، كما أنه المكان الحقيقي الذي يشعر فيه الإنسان بالراحة والخصوصية، ويعد مركز حياته الاجتماعية وفي بعض الأحيان الاقتصادية، وكثير من البشر اليوم يبذلون قصارى جهدهم في سبيل الحصول على سكن يأويهم.

بالإضافة إلى ذلك فإن عدم وجود المسكن قد ينتج عنه بعض المشاكل الاجتماعية وغيرها.

إنه بصفة عامة المكان الذي يجد فيه الأفراد أنفسهم، ليحققوا فيه احتياجاتهم البشرية.

ونعمة السكن والاستقرار في البيوت، والشعور بداخلها بالأمان والاطمئنان، من النعم التي امتن الله بها على خلقه لا يقدرها حق قدرها، إلا أولئك الذين فقدوها.

ومن الأحاديث التي وردت عن النبي صلى الله علية وسلم في بيان هذه النعمة ما ورد عن سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: "مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الهنيء". [1]

---

١) رواه البخاري في الأدب المفرد صـ (١٧٥)، بَابُ الْمَسْكَنِ الواسع، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده (٨٦/٢٤) ح (١٥٣٧٢)، في مسند المكيين، نافع بن عبد الحارث، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رجلا قال: يا رسول الله سمعت دعاءك الليلة، فكان الذي وصل إليّ منه أنك تقول: «اللهم اغفر لي ذنبي، ووسع لي في داري، وبارك لي فيما رزقتني". [1]

وفي هذا الفصل أتناول بمشيئة الله تعالى أنواع لمساكن البشر التي أشار إليها القرآن الكريم.

١) رواه الإمام الترمذي في سننه (٥٢٧/٥)، ح (٣٥٠٠)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٧١/١)، ح (١٢٦٥)، الناشر: المكتب الإسلامي، عدد الأجزاء:٢.

المبحث الأول
سكن آدم (عليه السلام) وزوجه الجنة

أول سكن أعده الله تعالى للإنسان، تلك الجنة التي أسكنها لآدم وحواء (عليهما السلام) ثم خرجا منها، وقد وردت أحداث هذه القصة في سبعة مواطن من القرآن الكريم في سورة (البقرة، والأعراف، والحِجر، والإسراء، وطه، والكهف، و ص) على درجات متفاوتة من الطول والقصر، والبسط والاختصار، وهي في مجموعها تشكل وحدة متكاملة مترابطة، لا اختلال فيها ولا انقطاع.

وحاصل هذه القصة؛ أن الله سبحانه بعد أن خلق آدم (عليه السلام) ونفخ فيه من روحه أمر ملائكته بالسجود لآدم (عليه السلام) فسجدوا إلا إبليس كان من الجن قال تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [1] وكان وجه اعتراضه كما أخبر الله عنه ﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [2] فغضب الله عليه ولعنه وطرده من الجنة بعد استكباره عن السجود لآدم، فطلب إبليس من الله البقاء إلى يوم يبعثون بقوله ﴿ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾[3] فجاءه الرد من الله ﴿ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [4] فتوعد إبليس آدم (عليه السلام) وذريته من بعده بالإغواء والضلال.

ثم امتن الله (عز وجل) على آدم (عليه السلام) وزوجه بسكنى الجنة وذلك قبل أن يهبط إبليس إلى الأرض، قال تعالى ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [5]، وقال سبحانه ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[6] وأباح لهما الأكل منها حيث شاءا

---

١) سورة الكهف، جزء من الآية (٥٠).
٢) سورة الإسراء، جزء من الآية (٦١).
٣) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٤).
٤) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٥).
٥) سورة البقرة، جزء من الآية (٣٥).
٦) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٩).

قال تعالى﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [1] أي تمتعا بثمارها ومن جميع أصنافها إلا شجرة واحدة منعا منها، قال تعالى ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [2] أي فتصيرا من المتجاوزين أمر الله.

وأقوال أهل العلم في تعيين هذه الشجرة كثيرة ولا طائل من ورائها، لأن القرآن الكريم لم يضع دليلاً على تعيينها فهو محل للعبرة والعظة، كما أنه لم يرد تعيين لها في السنة الصحيحة.

ويلاحظ أن الآية الكريمة نهت عن مجرد الاقتراب من الشجرة، وهذا أبلغ في النهي.

بيد أن إبليس لم يتركهما وشأنهما، فوسوس لهما، واستدرجهما إلى الأكل منها، فخالفا أمر ربهما، فطُردا من الجنة، قال تعالى ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [3]

وذلك بعد أن أقسم لهما أنه من الناصحين، وأن الأكل من هذه الشجرة يجعلهما من جنس الملائكة أو من الخالدين في الدنيا، قال تعالى﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [4]، وقال لهما ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [5]، وفي آية أخرى ﴿ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [6] أي هل أدلك على الشجرة التي من أكل منها منها عاش مخلداً، وصار صاحب ملك لا يفنى؟

فانخدع آدم وحواء بهذا القسم وأكلا من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، وأطاعا أمر إبليس، وكان ذلك عن ضعف ونسيان، كما قال سبحانه:﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [7]

---

١) سورة البقرة، جزء من الآية (٣٥).
٢) سورة البقرة، جزء من الآية (٣٥)، وسورة الأعراف، جزء من الآية (١٩).
٣) سورة البقرة، جزء من الآية (٣٦).
٤) سورة الأعراف، الآية (٢١).
٥) سورة الأعراف، جزء من الآية (٢٠).
٦) سورة طه، جزء من الآية (١٢٠).
٧) سورة طه، الآية (١١٥). حيث نسي عداوة الشيطان له.

عندها انكشفت لهما عوراتهما، وكانت مستورة عن أعينهما، فأقبلا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليسترا عوراتهما ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣ ﴾ [1] فتاب الله عليهما، ثم جاء الأمر الإلهي لهما بالهبوط من الجنة والاستقرار في الأرض، قال تعالى ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾[2] أي قال الله تعالى لآدم وحواء: اهبطا من الجنة إلى الأرض جميعًا مع إبليس، فأنتما وهو أعداء كما جاء في قوله تعالى ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ ﴾ [3] أي آدم وحواء وإبليس، وقال سبحانه ﴿ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝٣٦ ﴾ [4]، وفي موضع آخر ﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝٢٤ ﴾[5] أي انتفاع بما فيها إلى وقت انتهاء آجالكم.

وكان دخوله الجنة وخروجه منها يوم الجمعة، كما جاء الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها». [6]

لكن وقع خلاف بين أهل العلم في تعيين هذه الجنة، هل هي جنة الخلد التي أعدها الله ثواباً للمؤمنين بعد البعث والحساب، أو جنة أخرى غيرها أعدها الله لآدم وحواء؟

يثور جدل قديم متجدّد كل فترة حول هذه القضية، وورد فيها أقوال كثيرة، أشهرها قولان:

---

١) سورة الأعراف، الآية (٢٢، ٢٣).
٢) سورة طه، الآية (١٢٣).
٣) سورة البقرة، جزء من الآية (٣٨).
٤) سورة البقرة، جزء من الآية (٣٦).
٥) سورة الأعراف، جزء من الآية (٢٤).
٦) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢/ ٥٨٥)، ح (٨٥٤)، كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ فَضْلِ يَوْمِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، عدد الأجزاء: ٥.

الأول: أنها جنة الخلد التي أعدها الله تعالى دار كرامة لعباده المؤمنين في الآخرة، وهو ما ذهب إليه جمهور أهل السنة.

الثاني: أنها جنة في الأرض أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وامتحان.

وهو ما ذهب إليه جمهور علماء المعتزلة، وعزاه بعضهم لسفيان بن عُيينة، وقال به: المُنْذِر بن سعيد البلوطي. ومن المتأخرين: الشيخ الإمام محمد عبده، والشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ الشعراوي (رحمهم الله) أجمعين.

والإمام ابن القيم عرض المسألة في كتابه "حادي الأرواح"، وكتاب" مفتاح دار السعادة" وسرد أدلة الفريقين بتفصيل وإسهاب، أذكر جانباً منها:[1]

أدلة الفريق الأول:

استدل أصحاب هذا القول بأدلة كثيرة لا يتسع المقام لذكرها هنا أذكر منها:

١) قوله تعالى ﴿ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾[2]

فقالوا: هذه الجنة ليست في الأرض من وجهين:

أحدهما: لفظ " ٱهْبِطُوا۟ " يدل على النزول من أعلى إلى أسفل.

الثاني: قوله ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ عقب قوله "ٱهْبِطُوا۟ " دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض وإنما أهبطوا إليها، لأنهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا إلى أرض أخرى؛ كانتقال قوم

---

١) يراجع: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح من صـ (٢٢: ٤٤)، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة، ومفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١١/١)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ومفاتيح الغيب للرازي (٣/ ٤٥٢) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٢) سورة البقرة، جزء من الآية (٣٦). وفي سورة الأعراف (قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾).

موسى من أرض إلى أرض، لكان مستقرهم ومتاعهم إلى حين في الأرض قبل الهبوط وبعده.

ثم أكد هذا بقوله في سورة الأعراف ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ ولو كانت الجنة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده.

٢) وصف سبحانه جنة آدم (عليه السلام) بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد، قال تعالى ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾(١)؛ وهذا لا يكون في الدنيا أصلا، ولو كان الرجل في أطيب منازلها لا بد أن يعرض له شيء من ذلك.

٣) روى الإمام مسلم في صَحِيحه عن أبي هريرة وعن حذيفة (رضي الله عنهما) قالا: قال رسول الله (ﷺ): " يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ ..." (٢) الحَدِيث.

فهذا يدل على أن الجنة التي أخْرُج منها آدم هي بِعَينهَا التي يطلب منه استفتاحها.

٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه ـ عن النبي (ﷺ) قال: " احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟"(٣)

والنصوص في ذلك كثيرة، وكذلك كلام السلف والأئمة.

---

١) سورة طه، الآية (١١٨، ١١٩).

٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ١٨٧)، ح (١٩٥)، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً فِيهَا.

٣) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٨/ ١٢٦) كِتَابُ القَدَرِ، بَابُ تَحَاجَّ آدَمُ وَمُوسَى عِنْدَ اللَّهِ، والإمام مسلم في صحيحه (٢٠٤٢/٤)، ح (٢٦٥٢)، كتاب الْقَدَرِ، بَابُ حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

تعصب البعض لهذا الرأي:

ذكر هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى، وانتصر لهذا الرأي فقال: " والجنة التي أسكنها آدم (عليه السلام) وزوجته عند سلف الأمة وأهل السنة والجماعة هي: جنة الخلد، ومن قال: إنها جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة، أو غير ذلك، فهو من المتفلسفة والملحدين، أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين من المتفلسفة والمعتزلة، وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول."[1]

_ وقال القرطبي: " هي جنة الخلد ولا التفات لما ذهبت إليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن في جنة الخلد وإنما كان في جنة بأرض عدن". [2] وذكر أدلتهم وردها بما يطول ذكره هنا.

أدلة الفريق الثاني:

استدل أصحاب هذا القول بأدلة كثيرة منها:

١) جنة الآخرة ليست محلاً للتكليف، أما جنة آدم (عليه السلام) فكان بها تكليف ونهي، قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3]

٢) جنة الآخرة ليس فيها شجرة محرمة على أهلها أو ممنوعة، قال تعالى ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [4] كما أنه لا ثمار فيها ممنوعة قال تعالى ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾. [5]

٣) جنة الآخرة لا يوجد فيها لغو ولا تأثيم، قال تعالى ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ ﴾. [6]

---

١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٤٦/٤) المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م

٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٠٢/١) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

٣) سورة البقرة، جزء من الآية (٣٥)، وفي سورة الأعراف، جزء من الآية (١٩).

٤) سورة الزمر، الآية (٣٤).

٥) سورة الواقعة، الآية (٣٢، ٣٣).

٦) سورة النبأ، الآية (٣٥).

وأي لغو أشد من الدعوة إلى معصية الله ـ عز وجل ـ

٤) جنة الآخرة لا خروج منها أبداً فهي دار خلود للمؤمنين المتقين، قال تعالى ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾. [١]

٥) جنة الآخرة لا تكون إلا بعد الحياة الدنيا؛ لأنها جزاء للمؤمنين المتقين الذين يعملون الصالحات، قال تعالى ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾. [٢] ويقول أيضاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾. [٣]

التوقف وعدم الترجيح:

هذه صورة من الخلاف حول الجنة التي سكنها آدم (عليه السلام) وخرج منها، والأسلم: الكف عن تعيينها وعن القطع بتعيينها، والمسألة نظرية وليست محل إجماع، فالنصوص محتملة وليست قطعية، كما أنه لا يترتب عليها عمل، والأولى في مثل هذه المسائل التوقف وعدم الجزم، دون اعتبار قولٍ منها محل اتفاق، أو وصف قول آخر بأنه بدعة أو ضلال أو مصادم للنص القرآني، إذ ليس لهذه القضية تأثير في العقيدة. وهو ما اختاره الإمام الرازي. [٤]

والعلامة ابن القيم بعد أن ذكر هذه المسألة وأطال فيها، فقال: " هذه المسألة فيها قَولَانِ للنَّاس؛ وَنحن نذْكر الْقَوْلَيْنِ واحتجاج الْفَرِيقَيْنِ" ثم قال: " من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وإبطال الآخر إذ ليس غرضنا ذَلِك وإنما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح الْمُقْتَضِيَة لإخراج آدم (عليه السلام) من الْجنَّة وإسكانه فِي الأرض فِي دَار الِابْتِلَاء والامتحان". [٥]

---

١) سورة الحجر، الآية (٤٨).
٢) سورة الفرقان، الآية (١٥).
٣) سورة الأحقاف، الآية (١٤).
٤) يراجع: مفاتيح الغيب (٤٥٢/٣).
٥) يراجع: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح من صـ (٢٢: ٤٤).

واختاره ابن الخطيب وجعله قولا فقال: " الكل ممكن، والأدلة متعارضة فوجب التوقف وترك القطع". [1]

ومجمل الآيات؛ أن الله تعالى أمر آدم (عليه السلام) وزوجه بسكنى الجنة والتمتع بها، ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة وأخبرهما أن قربها ظلم، لكن الشيطان أزلهما عنها فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم إلى ضده، ثم تاب آدم (عليه السلام) من معصيته فتاب الله (عز وجل) وقبل توبته، ثم جعل سعادته وذريته من بعده باتباع هدى الله وشقاءه بتركه.

١) المصدر السابق صـ (٢٣).

المبحث الثاني

(البيوت سكن)

كلمة "بيوت" يجوز فيها ضم الموحدة وكسرها، والضم هو الأشهر؛ لأنه على وزن فُعول، وهو مطرد في جمع فَعْل- بفتح الفاء وسكون العين، ولغة الكسر لمناسبة وقوع الياء التحتية بعد الموحدة المضمومة، لأن الانتقال من حركة الضم إلى النطق بالياء ثقيل، وقرئ بهما في المتواتر. [١]

وجمعه أبيات وبيوت، والبيوت للمسكن أخص، والأبيات للشعر أخص، لأنه يضم الكلام، كما يضم البيت أهله.

وكلمة "بيت" لها مدلولات كثيرة في اللغة العربية، فتعني (المسكن)، وتعني أيضًا (بيتًا من الشِّعر) وتطلق الكلمة أيضًا على (امرأة الرجل وعياله) وغير ذلك كما ورد في المعاجم. [٢]

البيوت في القرآن الكريم:

المواطن والأحوال التي استعملت فيها كلمة بيت أو بيوت في القرآن الكريم كثيرة، وقد ذكر الفيروز أبادي: أن كلمة البيت قد وردت على خمسة عشر وجهاً في القرآن الكريم منها أن تأتي بمعنى المنزل والمسكن. [٣]

---

١) قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب، بضم الباء، في قوله " في بُيوت"، وقرأ حمزة وأبو بكر في (بِيوت) بكسر الباء، وذلك لمجانسة الياء.
يراجع: الحجة للقراء السبعة لأبي على الفارسي (١/ ٧٢)، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق / بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م، والنشر في القراءات العشر، لابن الجزري (٢/ ٢٢٦)، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى.
وبهذا يتبين أن الضم، والكسر لغتان.

٢) يراجع: لسان العرب لابن منظور (٢/ ١٤)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ، وتاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزَّبيدي (٤/ ٤٥٧)، الناشر: دار الهداية. والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني (١٥١).

٣) يراجع: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز أبادي (٢/ ١٩٦). المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

وهذا ما ستتناوله الدراسة من حيث هو سكن الإنسان الذي يأوي إليه، مهما تعددت مواد بنائه، وتباينت أشكاله أو اختلفت أنواعه.

أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل، بات يبيت، ويبات بيتوتة، وهو المكث والإقامة، ومنه قوله تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾[1] ويقع ذلك غالباً على نصف الليل أو أكثر، ثم قيل للمسكن بيت.

وهو اسم جنس للمكان المتخذ مسكناً لواحد أو عدد من الناس، يحيط به ما يميزه عن بقية بقعته من الأرض ليكون مستقراً له، ففيه يستتر عن عيون الناس، ويستكن من الحر والبرد، ومحطاً لأثاثه وشؤونه، ولا يكون بيتا إلا إذا كان مستورا أعلاه. [2]

قال القرطبي: " كل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت". [3]

وبيت الرجل داره، وبيته قصره، ومنه قول جبريل، عليه السلام: للنبي (ﷺ): "بشِّر خديجة بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ ". [4]

ومن أوضح الآيات التي صرحت بأن **البيوت سكن للإنسان** ما جاء في قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ... ﴾ [5]

---

١) سورة الفرقان، الآية (٦٤).
٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٣٧/١٤) بتصرف واختصار، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦٢٥/٢).
٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٨٧) ح (٢٤٣٢)، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها. وقوله (من قصب) المراد به: قصب اللؤلؤ المجوف كالقصر المنيف. وقيل: قصر من ذهب منظوم بالجوهر. قال الخطابي وغيره المراد بالبيت هنا القصر. والصخب: الصوت المختلط المرتفع. والنصب: المشقة والتعب.
٥) سورة النحل، جزء من الآية (٨٠).

وسُمّى البيت سكناً؛ لأن الإنسان يسكن فيه، أي يقيم فيه وينتفع به سائر وجوه الانتفاع، فهو يكنه من الحر والبرد ويستره وأولاده وأمتعته إلى غير ذلك من الفوائد المشاهدة.

قال صاحب الكشاف: "والسكن: فَعَل بمعنى مفعول، وهو ما يسكن إليه وينقطع". [1]

كما أن البيت يجب أن تكون فيه السكينة، بمعنى راحة وطمأنينة كل من فيه إلى الآخر، فلا يصح أن يكون مكاناً للشقاق والخصام، لأن الشقاق والخصام ينافي كونه «سكنا»، هكذا يريده الإسلام، فيه الراحة الجسدية والسكينة النفسية.

_ ومن البيوت ما ليس بسكن؛ كما جاء في قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾[2] أي لا حرج عليكم أن تدخلوا بيوتاً لا يسكنها أحد بغير استئذان، وجاء في التفاسير: أنه يعني بها الأماكن العامة والتي فيها البيع والشراء.

_ وقد نسب الحق سبحانه وتعالى نعمة السكن إليه، فقال سبحانه ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ﴾ مع أن الناس هم الذين يصنعون بيوتهم ويبنونها؛ لأن الإنسان قبل أن يخلقه الله في هذا الوجود، سخر له الأرض وجعلها ثابتة بعدما كانت تميد ولا تستقر، وهيّأ له كل مقومات الحياة من (الماء، الهواء، الشمس، والقمر...)، وسخر له المواد التي تصلح للبناء والسقف.

_ وهو الذي هداه ووفقه إلى أساليب البناء وتجهيز المنازل، وأعانه على إنشائها؛ وهيأ له ما يعيش به بين أهله وأولاده بأمن وسلام وراحة واستقرار.

وبهذا يتضح سر تقديم " لكم " على ما بعدها؛" تشويقاً للسامع، وإيذاناً أن هذا لمنفعتهم". [3]

---

١) الكشاف للزمخشري (٦٢٥/٢) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ، عدد الأجزاء: ٤.
٢) سورة النور، جزء من الآية (٢٩).
٣) الكشاف للزمخشري (٦٢٥/٢).

ومن الآيات التي ورد فيها كلمة "بيت" ويراد بها:

_ المنزل: ما جاء في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾. [1] أي لا تدخلوا منازل مسكونة بأهلها حتى تستأذنوا سكانها في الدخول وتسلموا عليهم.

_ وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗ ...﴾ . [2]

وهي أكثر آية ذكر فيها لفظ " بيت" ويراد به المنزل المسكون، والمعنى؛ ليس على أنفسكم- أيها المؤمنون- حرج في أن تأكلوا من بيوتكم التي تقيمون فيها، وكذلك من بيوت آبائكم، أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت أعمامكم، أو بيوت عماتكم، أو بيوت أخوالكم، أو بيوت خالاتكم، أو من البيوت التي وُكِّلْتم بحفظها في غيبة أصحابها بإذنهم، أو من بيوت الأصدقاء، ولا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين، فإذا دخلتم بيوتًا مسكونة أو غيرها فليسلِّم بعضكم على بعض بتحية الإسلام، فهي تُنْمِي المودة والمحبة.

_ وقوله تعالى على لسان عيسى ـ عليه السلام -: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ ﴾[3] أي وأخبركم بما تأكلون وتدَّخرون في منازلكم من طعام.

_ وقوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞۛ ..﴾ [4] وذلك في غزوة الأحزاب؛ حين استأذن فريق من المنافقين الرسول (ﷺ) بالعودة إلى منازلهم داخل المدينة بحجة أنها معرّضة للعدو، ويمكن سرقتها؛ لأنها غير محصنة،

---

١) سورة النور، جزء من الآية (٢٧).
٢) سورة النور، جزء من الآية (٦١).
٣) سورة آل عمران، جزء من الآية (٤٩).
٤) سورة الأحزاب، جزء من الآية (١٣).

فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا إليه فأكذبهم الله بأنها ليست كذلك، وما قصدوا بذلك إلا الفرار من القتال.

_ وفي موضع آخر أشار القرآن الكريم إلى نوع من البيوت التي يصنعها الإنسان ويسكنها وتُسمى بالقصور وتكون في السهول والأودية، وأشار إليها بقوله تعالى ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾. (١)

القصر: ما شيد وعلا من المنازل على وجه الأرض؛ وسمّي بذلك؛ لأنه قصر على الداخلين والمستأذنين.

" وكانت العرب تسمي ما كان من الشعر والصوف بيتاً، وتسمي كل بيت مشيد من حجارة قصراً". (٢)

ومعناه: أَنهم حوَّلُوا الأماكن المستوية التي ليست بجبالٍ إلى مدائن ذات قصور زاهية رفيعة البنيان، بما ألهمهم الله من حذق صناعة البيوت وإجادة هندسة البناء.

وورد ذكرها في مواطن أخرى منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.(٣)

_ **أماكن الإقامة:** ومنها ما جاء في قوله تعالى ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾. (٤)

أي كما أخرجك ربك من مكة إلى المدينة، كذلك ينجز وعدك في نصرك على أعدائك بالحق.

---

١) سورة الأعراف، جزء من الآية (٧٤).
والسهل من الأرض: المكانُ المنخفضُ المستوي الذي لا وَعْرَ فيه.
٢) يراجع: معالم التنزيل للبغوي (٤٣٦/٣) الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٨، والمحرر الوجيز لابن عطية (٢٠١/٤)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.
٣) سورة الحج، الآية (٤٥). وبالرغم من كونها قصور عالية ومزخرفة لكنها لم تدفع عن أهلها العذاب، كما سيأتي بيانه في مساكن الظالمين.
٤) سورة الأنفال، جزء من الآية (٥).

أو كما أخرجك ربك من بيتك مِن المدينة إلى بدر كذلك يجعل لك غنيمة بدر بالحق.

والأكثرون على أنه في إخراجه من المدينة إلى بدر للقاء عِير قريش [1]

_ وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ...﴾. [2] أي ومَن يخرج من أرض الشرك إلى أرض الإسلام فرارًا بدينه، راجيًا فضل ربه، قاصدًا نصرة دينه، يجد في الأرض مكانًا ينعم فيه بما يكون سببًا في قوته وذلة أعدائه.

أو من يخرج من منزله قاصدًا نصرة دين الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، ثم يدركه الموت قبل بلوغه مقصده، فقد ثبت له جزاء عمله على الله.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۖ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ [3]

كانوا في الجاهلية وأول الإسلام إذا أحرموا للحج أو العمرة دخلوا البيوت من ظهورها وحرموا دخولها من أبوابها، من أجل أن سقف الباب يحول بينهم وبين السماء ظانين أن ذلك قربة إلى الله، فبين لهم البر الحقيقي بقوله: (وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ) أي بالتخلي عن المعاصي والرذائل، وعمل الخير والتحلي بالفضائل، واتباع الحق واجتناب الباطل، (وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا).

وقد روى البخاري بسنده عن البراء (رضي الله عنه) قال: " كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله الآية". [1]

---

١) يراجع: النكت والعيون للماوردي (٢/ ٢٩٥) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، وتفسير السمعاني (٢/ ٢٤٨) الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٢) سورة النساء، جزء من الآية (١٠٠).

في بيان تعنت الكفار برسالة النبي (ﷺ) وعدم إيمانهم بها حتى ولو كان له بيت يسكن فيه من ذهب.

٣) سورة البقرة، جزء من الآية (١٨٩).

وجُعل ذلك مثلاً في (طلب الأشياء بأسبابها دون غيرها)

جاء في تفسير المنار أن المراد من الآية طلب الأمور من مواضعها؛" فالزراعة والتجارة والصناعة أبواب لا يصل إليها إلا من دخلها من بابها، كذلك علوم الدين ومعرفة الحلال والحرام مصدرها كتاب الله وسنة رسوله".[٢]

_ بمعنى الخيام:

ومنها ما جاء في قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا ....﴾ [٣] فالإنسان يختار سكنه الذي يتناسب مع بيئته التي يعيش فيها، فالبيئة الرعوية يناسبها بيوت من جلود الأنعام التي تركب وتفك عند ترك المكان وسيأتي بيانها بالتفصيل في موضعها.

_ بمعنى بيوت الجبال:

كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ [٤]؛ أمثال قوم عاد وثمود، نحتوا في الجبال بيوتًا عظيمة وسيأتي بيانها في موضعها.

سكن الإنسان للوادي:

ومن الآيات التي جاء التصريح فيها بسكنى الإنسان للوادي، ما جاء في قصة إسكان إبراهيم (عليه السلام) لبعض ذريته بوادٍ ليس فيه شيء من زرع بجوار بيت الله المحرم، قال تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ... ﴾ [٥]

---

١) روى الإمام البخاري بسنده عن البراء رضي الله عنه، قال: «نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار إذا حجوا فجاءوا، لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار، فدخل من قبل بابه، فكأنه عير بذلك، فنزلت». صحيح البخاري (٣/ ٨) أبواب العمرة، باب قول الله تعالى: (وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا).

٢) «تفسير المنار» (١/ ٩٧) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م، عدد الأجزاء: ١٢.

٣) سورة النحل، جزء من الآية (٨٠).

٤) سورة الأعراف؛ جزء من الآية (٧٤).

٥) سورة إبراهيم، جزء من الآية (٣٧).

والوادي: هو المكان المنخفض بين مرتفعات، والمقصود به وادي مكة المكرمة. [1]

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده قصة إسكان إبراهيم لبعض ذريته في هذا المكان عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال ما ملخصه: «إن إبراهيم- عليه السلام- جاء بهاجر وابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم (عليه السلام) حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ... ﴾ [2]

_ **ثم كان انتشار القرى والمدن في مختلف المناطق**؛ من باب استعمار الأرض والأمر بالمشي في أرجائها، قال الله تعالى ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ..﴾ [3] أي وجعلكم عُمَّارا لها.

سكن القرية:

جاء التصريح بسكن القرية في قوله تعالى:(وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ ...). [4]

وذلك حين عصى بنو إسرائيل ربهم (سبحانه وتعالى) ونبيهم موسى - عليه السلام _ لما قدموا من مصر وأُمروا بدخول الأرض المقدسة وقتال من فيها من العماليق الكفرة، فنكلوا عن قتالهم وضعفوا، فرماهم الله في التيه

---

١) التفسير الوسيط للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي (٧/ ٥٦٦).
٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٤/ ١٤٢)، ح (٣٣٦٤)، كتاب أحاديث الأنبياء.
٣) سورة هود، جزء من الآية (٦١).
٤) سورة الأعراف، الآية (١٦١) لتكون وطنا لكم ومسكناً.

عقوبة لهم، كما بينته سورة المائدة في قوله تعالى: (يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾) [١].

ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس؛ كما نص على ذلك السدي والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهاني وغير واحد".[٢]

كما جاء هذا الأمر في موضع آخر قال تعالى (وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ...) [٣]

ويلاحظ أنه عبر في البقرة بقوله "ادخلوا"، وفي الأعراف بقوله "اسكنوا" وفي تعليل ذلك وجهان:

الأول: أن الدخول مقدم على السكون ولا بد منهما فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة والسكون في السورة المتأخرة. [٤]

وهذا القول يعتمد على نظرة واقعية، إذ دخول القرية أولا، ثم سكونها ثانيًا.

فإن قيل: إن «الأعراف» مكية و«البقرة» مدنية؛ فهي سابقة في النزول؟

فيجاب: إن البقرة مقدمة في الذكر على الأعراف، ويكون المراد السورة المتقدمة في ترتيب المصحف لا ترتيب النزول.

الثاني: أن القولين قيلا لهم، أي قيل لهم: ادخلوا وأسكنوها، ففرق ذلك على القصتين على عادة القرآن في تنوع أسلوب القصص تجديداً لنشاط السامع. [٥]

---

١) سورة المائدة، الآية (٢١).
٢) يراجع: تفسير ابن كثير (١/١٧٤).
٣) سورة البقرة، جزء من الآية (٥٨).
٤) مفاتيح الغيب للرازي (٣/ ٥٢٦).
٥) التحرير والتنوير (٩/ ١٤٤).

_ **بمعنى بيوت افتراضية**: كما في قوله تعالى ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ ﴾ [1] وفيها دليل على تعنت الكفار برسالة النبي (ﷺ) وعدم إيمانهم بها حتى ولو كان له بيت يسكن فيه من ذهب.

_ وقوله تعالى ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾. [2]؛ أي ولولا كراهة أن يرغب الناس في الكفر ويجتمعوا عليه، إذا رأوا أهله في سعة وتنعم، لأعطيناهم _ لبيان حقارة الدنيا _ بيوتاً سقفها متخذ من فضة، وسلالم من فضة يصعدون عليها، لكن اقتضت حكمته تعالى أن يغني ويفقر الكافر والمؤمن.

_ **بيوت المتاجرة (المحلات)**: كما في قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ﴾ [3] أي لا حرج عليكم أن تدخلوا بيوتاً لا يسكنها أحد بغير استئذان.

_ **حُجُرات النبوّة**: قال تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [4]؛ أي الزمن يا نساء النبي (ﷺ) حجراتكن، ولا تخرجن منها إلا لحاجة مشروعة، وقال تعالى ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ ﴾ [5] أي اذكرن ما يتلى في حجراتكن من القرآن وحديث الرسول ﷺ واعملن به.

_ بمعنى **المحابس**: كما في قوله تعالى ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ ﴾ [6]؛ أي فاحبسوهن في البيوت واجعلوها سجناً لهن.

_ **بمعنى المساجد، ومواضع العبادة**: قال تعالى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ [7] أي تخيّرا واتخذا لهم بيوتاً تكون مساكن، ويصلّون فيها عند الخوف.

---

١) سورة الإسراء، جزء من الآية (٩٣).
٢) سورة الزخرف، الآية (٣٣).
٣) سورة النور، جزء من الآية (٢٩).
٤) سورة الأحزاب، جزء من الآية (٣٣).
٥) سورة الأحزاب، جزء من الآية (٣٤).
٦) سورة النساء، جزء من الآية (١٥).
٧) سورة يونس، جزء من الآية (٨٧).

قال المفسرون: لما أمر فرعون بمساجد بني إسرائيل فخربت كلها، ومنعوا من الصلاة، أوحى الله إلى موسى وهارون (عليهما السلام) أن يتخذا مساجد لقومهم في بيوتهم للصلاة فيها خوفا من فرعون. [1]

_ **بمعنى سفينة نوح**: وذلك حين دعا نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ربه فقال: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا ﴾ [2] فكانت سفينته التي رُكِبت أيام الطوفان تعد بيتاً.

_ **بمعنى أَعشاش الحشرات:**

ـ لكل نوع من المخلوقات بيت يناسبه، فالنحل له بيته ويكون في الجبال أو على الشجر أو مما يصنعه البشر، كما في قوله تعالى ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [3]

_ وفي حق نسج العنكبوت قال الله تعالى ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [4] وسيأتي بيانهما في سكن الحيوان.

---

١) يراجع: التفسير الوسيط للواحدي (٢/ ٥٥٦)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، عدد الأجزاء: ٤

٢) سورة نوح، الآية (٢٨).

٣) سورة النحل، الآية (٦٨).

٤) سورة العنكبوت، الآية (٤١).

المبحث الثالث

(بيوت الخيام)

المتأمل في قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمۡ مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا ....﴾.[1] يرى أنها تقوم على الاستقصاء وحسن التقسيم، فبدأ بما يخص المقيمين، أو ما عليه أغلب البيوت الثابتة، وتكون للإقامة الدائمة، ثم ما يناسب المرتحل.

فالناس على ضربين مستوطن ومرتحل، والنوع الأول؛ يناسبه البيوت التي تُبنَى في أماكن الاستقرار التي يتوفّر فيها مُقوّمات الحياة من زراعة أو صناعة وخدمات ... إلى آخره، فإن وجدت هذه المقوّمات فلا مانعَ من البناء، أما إذا لم توجد هذه المقومات، وليس هناك ما يدعو إلى الاستقرار في المكان، فلا يناسبها البناء الدائم، وإنما القباب والخيام التي تركب وتفك عند ترك المكان، ويتخذ منها الأثاث والثياب والمنسوجات والمفروشات وغيرها من الأمتعة والصناعات التي لا تقوم إلا عليها، وإليها الإشارة بقوله تعالى﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا ﴾.

_ " أو أن الحق سبحانه وتعالى ذكر أولاً البيوت على طريق العموم، ثم ذكر بيوت الجلود خصوصاً تنبيهاً على حال أكثر العرب، فإنهم لانتجاعهم بيوتهم من الجلود."[2]

<u>مميزات بيوت الخيام:</u>

تمتاز هذه البيوت بأمور منها:

_ أنها يسهل على الإنسان نقلها وطيها وحملها من مكان إلى آخر عند السفر، وفي الإقامة لا يشق عليه ضربها وتوثيقها في الأرض، قال تعالى:

---

١) سورة النحل، جزء من الآية (٨٠).
٢) يراجع: البحر المحيط لأبي حيان (٥٧٦/٦)، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا يوم ظَعْنِكُم وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾[1] على أن اليوم في الآية بمعنى الوقت.

قال صاحب الكشاف: "ويوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم يثقل عليكم ضربها."[2]

_ أصحاب هذه البيوت حالهم تتبدل بين مسافر أو مقيم، لكن ترحالهم أكثر؛ فقدم " يَوْمَ ظَعْنِكُمْ " على "وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ "؛ لأن المنة في خفتها في السفر أتم وأقوى، إذ لا يهم المقيم أمرها كما يهم المسافر الظاعن.[3]

أو رُتبت الآية على حسب أحداث اليوم، فالرحيل بالنهار أكثر، والإقامة تكون بالليل غالباً.

_ كما أنها تكنه من الحر، وتمنع عنه شيئاً من البرد.

وهذا يجعل الإنسان العاقل يشعر بالطمأنينة والركون إلى خالقه الذي هداه لمثل هذه البيوت.

ـ مكونات هذه البيوت:

خُصت هذه البيوت بالحديث عن بعض ما يتخذ فيها من أثاث، فقال سبحانه" وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا ".

الأثاث- بفتح الهمزة- اسم جمع للأشياء التي تفرش في البيوت من وسائد وبسط وزرابي، وكلها تنسج أو تحشى بالأصواف والأشعار والأوبار.

---

١) الظعن: سير أهل البوادي للانتجاع، والتحول من موضع إلى موضع، لطلب مرتع أو ماء. فتح القدير للشوكاني (٢٢٠/٣) بتصرف. الناشر: دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ

٢) يراجع: الكشاف للزمخشري (٦٢٥/٢) بتصرف واختصار.

٣) محاسن التأويل، للقاسمي (٦/ ٣٩٨) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ، وروح المعاني للألوسي (٤٤٠/٧). الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

والتقدير: وجعل من أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا، واختاره أبو حيان ورجحه السمين الحلبي". [1]

ويجوز أن تكون الإشارة إلى المادة التي تصنع منها هذه البيوت؛ وهي جلود الأنعام فقال: " **وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا** " فتناول (الضأن) ويتخذ منها الأصواف، و(الإبل) يتخذ منها الأوبار، و(الماعز) يتخذ منها الأشعار، لكونها ثابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها، ويكون المعنى: جعل من أصوافها وأوبارها وأشعارها بيوتا.

_ كما تكلم عن المتاع الذي يكون فيها فقال: (**وَمَتَٰعًا**): ذهب بعض المفسرين إلى أنه لا فارق بينهما.

وذهب بعضهم إلى أن المتاع ما يتمتع وينتفع به في المتجر والمعاش.

ورجح بعضهم أن الأثاث: ما يكتسي به المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء، والمتاع ما يفرش في المنازل للزينة". [2]

وبالتأمل تجد أن لكل مفردة من الكلمتين لها دلالة ليست في الأخرى، فكلمة الأثاث فيها دلالة الضرورة، وكلمة المتاع: فيها زيادة الامتنان؛ والمراد: جعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا لبيوتكم تكتسون به وتستعملونه في الغطاء والفراش، ومتاعا من مال وتجارة وغير ذلك.

واقتصر على هذه الأصناف دون غيرها كالقطن أو الكتان لأنه:

_ لم ينتشر في ديارهم زراعة القطن والكتان.

_ أو أنه أشار إلى القطن والكتان والحرير وغيرهما في لفظ السرابيل في قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ..**﴾ [3] .

---

١) البحر المحيط لأبي حيان (٥٧٧/٦)، والدر المصون للحلبي (٢٧٣/٧) الناشر: دار القلم، دمشق.

٢) يراجع: مفاتيح الغيب للرازي (٢٥٣/٢٠) بتصرف يسير.

٣) سورة النحل جزء من الآية (٨١). السرابيل: تشمل جميع الملابس التي تقي من الحر والبرد.

وفي قوله سبحانه ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا...﴾.[1]

_ أو ذكرت على وجه التنويع؛ أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز.[2]

ـ وقيل: إنه ترك ذكر القطن والحرير والكتان إعراضاً عن السرف، إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف.

وهذا فيه نظر: "فإن دعوى أن لبس الخشن من الثياب أقرب إلى التواضع دعوى باطلة، فقد كان الفضلاء من العلماء يلبسون الرفيع من الثياب مع حصول التقوى".[3]

١) سورة الأعراف جزء من الآية (٢٦). هو اللباس الذي تستترون وتتزينون به.
٢) يراجع: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٥/ ١٣٣) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، وفتح القدير للشوكاني (٢٢١/٣).
٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٤١٢/٣)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥٤/١٠) بتصرف واختصار.

المبحث الرابع

سكن الظل [١]

ومن النعم التي امتن الله بها على البشر، إيجاد أماكن يسكن إليها بعض الناس للراحة أو الوقاية من حر أو غيره وهو ما يسمى بالظل، وأشار القرآن الكريم إليه في قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾[٢]؛ أي ومن نعم الله عليكم أيها الناس أن جعل لكم ما تستظلون به من الأشجار والسقوف والأبنية وغيرها.

• وهذا الظل ليس ثابتاً بل هو متحرك على مدار تواجد الشمس، قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَو شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾[٣] أي ومن آيات الله سبحانه وعجيب خلقه أن جعل الظل متحركاً ولو شاء لجعله ثابتاً لا يتحرك، ولكن لحكمة يعلمها ومصالح قدرها جعله متحركاً.

وقد ذكرت طائفة من المتخصصين بعلم الفلك أن هذه الآية دليل على دوران الأرض، لأنها لو كانت ثابتة لسكن الظل، ولم يتغير طولاً أو قصراً.[٤]

• والحق سبحانه وتعالى لم يحدد شيئا بعينه للظل، وإنما جاء على الإطلاق فقال: (مِّمَّا خَلَقَ): ليعم جميع الأجرام التي لها ظل وتمنع من حرارة الشمس، فمن عادة الناس تتبع الظل في أوقات الحر، كما جاء في قصة موسى (عليه السلام) ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾[٥]، أي ذهب إلى الظل للراحة من حرارة الشمس ومن مشقة السقي للمرأتين.

---

١) (الظل): ضوء شُعَاع الشَّمْس إذا استتر عَنْك بحاجز.
يراجع: المعجم الوسيط، المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢/ ٥٧٧). والظل بمعناه العام يقال: لكل موضع لم تصل إليه الشمس.
٢) سورة النحل، جزء من الآية (٨١).
٣) سورة الفرقان، جزء من الآية (٤٥).
٤) موقع/ إعجاز القرآن والسنة، مقال: إعجاز وصف الظل والظلال في القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور / زغلول النجار.
٥) سورة القصص، جزء من الآية (٢٤).

وقيل: إنه كان في ظِل شجرة، قاله ابن مسعود. وقيل: ظل جدار لا سقف له". [١]

ومن المعلوم أن عملية التظليل تؤدي إلى خفض درجة حرارة الهواء، وتساعد على زيادة الشعور بالراحة، فالنفس إذا كانت في الظل تستريح وتسكن خاصة في المناطق الحارة.

وجاءت كلمة" ظلالا "بصيغة الجمع، وليس "ظلا" بالإفراد؛ لينبه الى أن الظل الذي نراه بأعيننا ليس كله واحدا في التأثير؛ حيث تختلف درجة الحرارة حسب العنصر الذي يقوم بإلقاء الظل، وهذا من إعجاز القرآن الكريم .[٢]

لذا جاء في العديد من الآيات أمثلة ونماذج لما سكن إليه الإنسان من الظل مثل:

• الظلال الناتجة عن الغمام؛ في حكاية قوم موسى (عليه السلام) حين ذكّرهم الحق سبحانه بالنعم التي منّ بها عليهم، قال تعالى ﴿ **وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ** ﴾ [٣]، وقال سبحانه ﴿ **وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ** ﴾ [٤]؛ أي جعلنا الغمام كأنه مظلة فوقهم.

قال المفسرون: سخر الله لهم السحاب يسير بسيرهم ويظلهم من الشمس. [٥]

---

١) يراجع: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٣/ ٣٨٠) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ، والبحر المحيط لأبي حيان (٢٩٧/٨). والتحرير والتنوير لابن عاشور (١٠٢/٢٠).

٢) موقع/ إعجاز القرآن والسنة، مقال: إعجاز وصف الظل والظلال في القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور / زغلول النجار.

٣) سورة البقرة، جزء من الآية (٥٧).

٤) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٦٠).

٥) يراجع: مفاتيح الغيب للرازي (٣/ ٥٢٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي للبيضاوي (١/ ٨٢) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

قيل: جاءت سحابة وكانت تسير معهم، ومتى ارتفعت السحابة عن الخيمة، فذلك إذن لبني إسرائيل بالرحيل فإذا حلت السحابة حلوا... إلخ كذا تقول كتبهم. [1]

_ وفي موضع آخر أوضحت الآيات القرآنية أن "الظل الظليل" هو إحدى المتع التي أعدها الله سبحانه وتعالى لأهل الجنة، قال تعالى﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا ٥٧ ﴾[2]، وهو الظل المتراكب فوق بعضه بعضا ومثاله في الطبيعة ظل ورق الأشجار الذي يظلل بعضه بعضاً.

جاء ذلك في العديد من آيات القرآن الكريم منها ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا ﴾[3]، وقوله سبحانه ﴿ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ ﴾ [4]، وقال أيضاً:﴿ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ ﴾[5]

الظل الضار: ليس من الضروري أن يذكر الظل يراد منه الراحة والنعيم، بل يرد بمعنى العذاب والشقاء سواء في الدنيا أو الآخرة.

ومن أمثلته في الدنيا؛ ما أخبر به القرآن الكريم عن عذاب قوم شعيب، في قوله تعالى ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ ﴾[6]

---

١) انظر/ سفر الخروج من الإصحاح ٢٥- ٣٣ وسفر العدد الإصحاح ٩، نقلاً عن التحرير والتنوير ابن عاشور (١/ ٥٠٩).
٢) سورة النساء، الآية (٥٧).
٣) سورة الرعد، الآية (٣٥). أي ثمارها دائمة، وظلها دائم.
٤) سورة يس، الآية (٥٦). أي يجلسون في ظلال وعلى سرر في متعة ولذة.
٥) سورة الواقعة، الآية (٣٠) أي ظل دائم لا يزول.
٦) سورة الشعراء، جزء من الآية (١٨٩).
جاء في كتب التفسير؛ عن ابن عباس (رضي الله عنه): " أن الله تعالى بعث عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف البيوت فدخل عليهم فخرجوا منها هرباً إلى البرية فبعث الله تعالى عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس وهي الظلة فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عز وجل عليهم ناراً فأكلتهم جميعاً" يراجع: جامع البيان للطبري (٣٩٤/١٩)، وتفسير ابن كثير (١٦٢/٦) الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ.

_ ومن أمثلته في الآخرة، ما أخبر به القرآن عن حال أهل النار وقبل دخولهم فيها يحاولون الفرار من حرارة الشمس لدنوها من الرؤوس فيقال لهم على سبيل السخرية والتهكم بهم ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ ﴾ [1] أي أنه يزيد من ارتفاع درجات اللهيب.

وظل الدخان الأسود، الذي جاء في قوله تعالى ﴿ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ۝٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٖ ۝٤٤ ﴾[2] أي دخان أسود يخنق، لا بارد المنزل، ولا كريم المنظر.

١) سورة المرسلات، الآية (٣٠، ٣١).
٢) سورة الواقعة، الآية (٤٣، ٤٤)

المبحث الخامس

بيوت أو (أكنان) [1] الجبال

من الأماكن التي سكنها الإنسان وأشار القرآن الكريم إليها " أكنان الجبال ": وجاءت الإشارة إليه في قوله ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾ [2]

وهي الأماكن المنحوتة في الجبال، من كهوف ومغارات وغيرها، يأوي إليها الإنسان ويتحصن بها من حر أو برد أو مطر وغيره؛ كالاستتار فيها من تتبع الأعداء، كما حدث للنبي - ﷺ - هو وصاحبه أبو بكر (رضي الله عنه) في غار ثور حين استتر فيه من كفار قريش ثلاث ليال، وكما كان - ﷺ - قبل البعثة يتعبد في غار حراء الليالي ذوات العدد.

_ وخص الجبال بالذكر وترك السهولَ وما فيها من أكنان لعدة أسباب منها:

إنهم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل، بمعنى أن الجبال عندهم أعظم وأكثر ومن الأشياء المباشرة لهم؛ قاله عطاء الخراساني. [3]

ومثله قوله تعالى﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فما جعل لهم من غير ذلك أعظم منه وأكثر، لكنهم كانوا أصحاب وَبَر وَشَعَر.

أو اكتفى بذكر أحدهما عن الآخر؛ لدلالة الكلام عليه، فمن اتخذ من الجبال أكناناً اتخذ من السهل، كما أن السرابيل التي تقي الحر تقي البرد، قاله الفراء. [4]

أو لأنه سبق ذكر السهل في قوله تعالى﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾. [5]

---

١) مفردها كِنّ، والمراد: كل شيء وقى شيئاً وستره، يقال: استكن وأكن إذا صار في كن.
٢) سورة النحل، جزء من الآية (٨١).
٣) النكت والعيون للماوردي (٢٠٦/٣).
واختاره الإمام الطبري فقال: " وأولى القولين في ذلك بالصواب، قول من قال: إن القوم خوطبوا على قدر معرفتهم." جامع البيان (٢٧١/١٧).
٤) النكت والعيون للماوردي (٢٠٦/٣).
٥) المحرر الوجيز (٤١٢/٣).

وسماها الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية "أكنانا" ولم يسمها بيوتا:

ـ لأن سكان الجزيرة العربية في ذلك العصر لم يتخذوا جبالهم للسكن الدائم، بل كانت لمجرد الاستتار من عدو أو مطر منهمر، أو حرارة الشمس ونحو ذلك.

أما ما صرّح به القرآن الكريم بأنه كان من البشر من نحت الجبال وسكنها، فإن ذلك لم يكن عند أهل الحجاز ونجد ونحوها، بل كان ذلك منتشراً في العصور الماضية عند بعض الأمم مثل قوم عاد وثمود وإليكم نماذج لذلك.

نموذج لمن سكنوا الجبال (قوم عاد)

قص القرآن الكريم علينا أنباء أقوام كانوا قبلنا، سكنوا الأرض وعمروها، وكانوا أولي قوة وبأس شديد، مثل قوم هود (عليه السلام)، الذين سكنوا الأحقاف، وهي الأماكن المرتفعة بين عمان وحضرموت في منطقة تسمى الآن بالربع الخالي، وهم أولُ أمة أبدعت في الحضارة والعمران بعد الطوفان الذي أغرق المكذبين من قوم نوح ـ عليه السلام ـ، وأخبر القرآن الكريم عن ذلك وعن قوتهم وسلطانهم فقال لهم على لسان نبيهم: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ﴾[1]

ومع ما وصلوا إليه من حضارة وعمران وتقدم مادي، حيث بلغوا فيه مبلغاً لم يصل إليه غيرهم، كما في قوله تعالى ﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ ﴾[2] فبيوتهم كانت ذات أعمدة، وبُنيت بطريقة لم يُخلَق مثلها في البلاد، إلا أنهم فُتنوا ببناء هذه القصور الضخمة العالية والمتينة على المرتفعات من الطرق، وأبدعوا في تصويرها ونقشها، وجلب كل نفيس إليها، حتى بدت آية في الحسن والجمال والزخرفة والفخامة، فاستنكر هود- عليه السلام- ما كانوا عليه، وقال لهم في شأن هذا العمران العظيم ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝١٢٩ ﴾[3]

---

١) سورة الأعراف، جزء من الآية (٦٩).
٢) سورة الفجر، الآية (٧، ٨).
٣) سورة الشعراء، (١٢٨، ١٢٩).

فتوبيخهم على عدم اهتمامهم بشئون دينهم وعلى انشغالهم وتشييدهم لهذه الأبنية طمعاً في الخلود؛ كأنها تمنعهم من الموت، ولم ينظروا إلى ما وراء هذه الحياة، فيكون الكلام مسوقاً مساق الموعظة بعدم التوغل في الترف.

_ أو على أن عملهم كان بقصد التباهي والعبث والتفاخر والدلالة على الغنى، لا بقصد النفع العام لهم ولغيرهم.

وقد ذكر ابن عاشور في تفسيره؛ " أنهم بنوا في طرق أسفارهم أعلاماً ومنارات تدل على الطريق، وحفروا وشيدوا مصانع للمياه؛ ليشرب منها المسافرون وينتفع بها الحاضرون في زمن قلة الأمطار، وبنوا حصونا وقصوراً على أشراف من الأرض، وهي من الأعمال النافعة في ذاتها؛ لأن فيها حفظ الناس من الهلاك، لكن هذه الأمور متى أريد بها رضى الله تعالى بنفع عبيده كانت جديرة بالثناء عاجلا والثواب آجلا، أما إذا أُهمل إرضاء الله تعالى بها واتخذت للرياء والغرور، وكانت من أسباب الإعراض عن عبادة الله، صار وجودها شبيها بالعبث لأنها خلت عن روح المقاصد الحسنة".[1]

_ أو لأنهم كانوا يجلسون في شُرفات هذه القصور يصدُّون الناس، ويصرفونهم عن هود (عليه السلام) وسماع كلامه ودعوته.

وفي هذا دليل على أن الأمم في حال انحطاطها حولت ما كان موضوعا للمصالح إلى مفاسد، وعمدوا إلى ما كان مبنيا لقصد التيسير والأمن على المارة من الضلال في الأماكن المهلكة إلى مكان لهو وسخرية".[2]

ومع ما قام به هود ـ عليه السلام ـ من دعوتهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم، لم يزدادوا إلا عتواً واستكباراً وسخرية به وبدعوته، فرانت على

الريع بكسر الراء؛ هو المكان المرتفع من الأرض الذي يبدو من بعيد، والأكثرون على ذلك. ومنه: ريع النبات، وهو ارتفاعه بالزيادة. قال الزجاج: الريع في اللغة: الموضع المرتفع من الأرض، ومن ذلك كم ريع أرضك، أي كم ارتفاع أرضك. معاني القرآن للزجاج (٩٦/٤) الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٦٦/١٩).

٢) المصدر السابق (١٦٩/١٩) بتصرف.

قلوبهم الغفلة، واستحكمت فيهم الشهوة، حتى قالوا:﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ..﴾ [1] فكانت نهايتهم أليمة، وعاقبة كفرهم وخيمة، ولم يبق لهم شيئا من متاعهم إلا بقايا بيوتهم لتكون عبرة لغيرهم، وأثراً من آثارهم الدَّالة عليهم وعلى نزول العذاب بهم، كما سيأتي بيانه في مساكن الظالمين.

نموذج ثان لمن سكنوا الجبال: (قوم ثمود)

لما هلكت عادٌ خلفتها ثمودُ في القوة والبأس والحذق في فنون البناء والعمران، فبنوا القصور من حجارة الجبال التي قطعوها وجلبوها للوادي، كما نحتوا الجبال وبنوا فيها بيوتاً حصينة، قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾[2]

فأخذوا آلاتهم وهم أولو قوة، ونحتوا في بطون الجبال بيوتاً حصينة، قال تعالى ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[3] أي حاذقين ومتقنين

---

١) سورة فصلت، جزء من الآية (١٥).

٢) سورة الأعراف؛ جزء من الآية (٧٤). والنحت في كلام العرب: النَّشْرُ والقَشْر في الشيء الصلب؛ كالحجر والعود ونحوه. يراجع: لسان العرب لابن منظور (٢/ ٩٧).

ونَحَتَ الجبلَ يَنْحِتُه: قَطَعَه، وفي التنزيل:﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ سورة الصافات؛ الآية (٩٥). أي ما تقطعونه من الحجارة.

٣) سورة الشعراء؛ الآية (١٤٩).

قَرَأَ ابْن كثير وَأَبُو عَمْرو وَنَافِع / فرهين / بِغَيْر ألف بمعنى: أشرين بطرين.

وَقَرَأَ عَاصِم وَابْن عَامر وَحَمْزَة والكسائي {فارهين} بِأَلف؛ بمعنى: ماهرين حاذقين بنحتها.

يراجع: السبعة في القراءات ابن مجاهد (ص٤٧٢) الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ، ومعاني القراءات للأزهري (٢/ ٢٢٨)، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، والحجة للقراء السبعة لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسيّ (٥/ ٣٦٦) وحجة القراءات ابن زنجلة (ص٥١٩).

قال الإمام الطبري: " والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان، مستفيضة القراءة بكل واحدة منهما في علماء القرّاء، فبأتيهما قرأ القارئ فمصيب. جامع البيان (٣٨٣/١٩)

لنحتها ونقشها، وهم إلى جانب ذلك كانوا معجبين بصناعتهم، فهم في حال فرح وبطر وطغيان.

_ وهذه الحالة جعلتهم يركنون إلى الدنيا ولا يؤمنون بيوم القيامة، ولا يفكرون في آيات الله الدالة على صحة ما جاءهم به صالح (عليه السلام) من الحق، واغتروا بهذه البيوت المنحوتة في الجبال قال تعالى﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1] أي على أنفسهم بعدم هدمها أو قوعها عليهم، أو من العدوان مثل نقب اللصوص وتخريب الأعداء، أو حوادث الدهر؛ لقوة بنائها وبديع إحكامها.

وقيل: آمنين من الموت؛ لاغترارهم بطول أعمارهم.

وقيل: آمنين من عذاب الله؛ لفرط غفلتهم لظنهم أن الجبال تحميهم منه.[2]

وهو ما رجحه ابن عطية في تفسيره حيث قال: " وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة ".[3]

وقد نعتهم القرآن في نحتهم للحجر بوصفين: فوصفهم مرة بأنهم "فارهون"، ومرة بأنهم "آمنون"؛ ليفيد أنهم كانوا حاذقين ومتقنين في بناء بيوتهم، ونتيجة لإجادتهم وبناءهم البيوت بهذه الطريقة ظنوا أنها تحميهم من الموت أو العدو لفرط غفلتهم ونسيانهم الخالق عز وجل.

_ وفي قوله تعالى ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾[4] دليل على أنهم قطعوا وخرقوا الحجر وجعلوه بيوتاً، والعرب تقول: جاب فلان الفلاة

ولا مانع من الجمع بين المعنيين؛ فنحت الحجر يستدعي حاسة فنية خاصة، مع قوة بدنية، فإنهم كانوا ماهرين حاذقين في نحت الجبال ومع الإتقان والنشاط كانوا في نفس الوقت عابثين ببنائهم، طامعين في الدنيا حتى كأنهم مخلدون فيها.

١) سورة الحجر؛ الآية (٨٢).

٢) وهذه الأقوال ذكرها الإمام الطبري في جامع البيان (١٢٦/١٧) والماوردي في النكت والعيون (١٦٩/٣) وابن الجوزي في زاد المسير (٥٤١/٢).

٣) المحرر الوجيز لابن عطية (٣٧٢/٣) ورجحه الثعالبي في الجواهر الحسان (٤٠٦/٣).

٤) سورة الفجر؛ الآية (٩).

يجوبها جوبا، إذا دخلها وقطعها؛ فالجوب القطع كما يشق الجيب، وهو فتحة الثوب التي يلبس منها.

ذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد؛ أنهم كانوا يعمدون إلى أعظم جبل فيثقبونه وينحتونه وينقبونه ويجعلون تلك الأنقاب بيوتا يسكنون فيها، ويجعلون بابه منها، وغلقه منها فكانت أشبه بحصون. (١)

ويكون قوله: بالواد علم بالغلبة للمكان الذي كانوا يسكنون فيه. (٢)

_ أو أنهم كانوا يقطعون الصخور من الجبال وينحتونها ويبنون بها القصور بواديهم، أي: بالمكان الذي كانوا يسكنونه، بوضع بعضها فوق بعض بطريقة هندسية، يستمسك بها البناءُ ولا يتصدع فكانت محصنة.

ويكون المراد بالواد: اسم لأرض كائنة بين جبلين منخفضة، وإن لم يكن فيه ماء، ومنه سمي مجرى الماء الكثير واد، وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكا للسيل ومنفذا فهو واد.

ولا مانع من إرادة القولين، ويكون ذلك من قبيل نعم الله عليهم؛ كما جاء في قوله تعالى ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾(٣)

وسُمي قوم ثمود بأصحاب الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم)، لأن بيوتهم كانت حجرا عليهم من أي عدو يريدهم، من إنسان أو حيوان، أو لأن ديارهم كانت منحوتة في الجبال نحتا محكماً.

سر سكنهم للجبال: سكنوا الجبال لأسباب منها:

_ إن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم.

---

١) يراجع: معالم التنزيل للبغوي (٢٤٩/٥) مفاتيح الغيب للرازي (١٥٤/٣١) والبحر المحيط لأبي حيان (٤٧٢/١٠) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤٧/٢٠).
٢) تفسير الوسيط للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي (٣٨٦/١٥) الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧.
٣) سورة الأعراف؛ جزء من الآية (٧٤).

قال الزجاج: " يروى أنهم لطول أعمارهم كانوا يحتاجون إلى أن ينحتوا بيوتًا في الجبال؛ لأن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم".[1]

_أو إنهم كانوا يسكنون الجبال في فصل الشتاء، ويسكنون السهول بقية الفصول، وذلك أعلى درجات الترف في المسكن؛ قصور في السهول، وبيوت في أكناف الجبل، وهذا يفيد أنهم كانوا في نعم عظيمة.

حال بيوتهم عند هلاكهم: كانت نهايتهم مرتبطة ببيوتهم وديارهم؛ لبيان أن هذه البيوت والمساكن التي كثيرا ما تفاخروا بها في الدنيا، وظنوا أنها تغني عنهم من الله شيئاً، لم تنفعهم عند نزول عذاب الله، فإذ بكل شيء قد ذهب، وكل وقاية قد ضاعت، وكل حصن قد هان، وفعل الله بهم ما فعل من العذاب والنكال وأصبحوا في ديارهم جاثمين قال تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[2]

فبيوتهم ظلت قائمة لم يصبها هلاك ولا دمار لتكون علامة على ظلمهم وطغيانهم، قال تعالى﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ...﴾[3]

وبهذا انتهت حضارتهم، وما أغنت عنهم من عذاب الله شيئاً، وحقت عليهم لعنة الله في الدنيا وفي الآخرة وسيأتي بيان ذلك في مساكن الظالمين.

---

١) يراجع: معاني القرآن للزجاج (٣٥٠/٢). وعن وهب بن منبه: "كان الرجل منهم يبني البنيان، فيمر عليه مائة سنة فيخرب، ثم يجدده، فيمر عليه مائة سنة، فيخرب ثم يجدده، فيمر عليه مائة سنة، فيخرب فأضجرهم ذلك، فاتخذوا من الجبال بيوتا".
يراجع: زاد المسير ابن الجوزي (١٣٥/٢) البحر المحيط لأبي حيان (٩٤/٥).
٢) سورة الأعراف، الآية (٧٨). أي هالكين وقد سقطوا على وجوههم لاصقين بالأرض.
وقال في موضع آخر من سورة هود: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾
٣) سورة النمل، الآية (٥٢).

المبحث السادس

سكن المطلقة

أمر ربنا سبحانه وتعالى الأزواج بحسن معاملة أزواجهن، ولزوم معاشرتهن بالمعروف، وقد جاء ذلك في العديد من الآيات منها؛ ما جاء في قوله تعالى ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾[1]

كما نهى عن الإساءة إليهن وعدم إيذائهن حتى عند إرادة الطلاق وبعده، فجاء الأمر بإسكانهن ليتحقق لون من التقوى كما بينت السورة، قال تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾[2]

والمتدبر لآيات سورة الطلاق يراها تسير في تسلسل واضح وحكيم لما يحدث بين الزوجين عند إرادة الطلاق وأثناء فترة العدة وبعد انتهائها، وتشير إلى حسن المعاملة لهن في كل مرحلة كما جاء في السورة؛ لأن الأزواج غالباً لا يطلقون زوجاتهم إلا عن بغض وكراهية لهن، بل قد يصل الأمر إلى أن ينسب الزوج إلى مطلقته بعض ما يشينها وينفر الخطاب عنها، ويوهم أنه ما فارقها إلا لأمر معيب ظهر له منها.

قال صاحب الكشاف: " قوله: " أسكنوهن" وما بعده: استئناف وقع جواباً عن سؤال نشأ مما قبله من الحث على التقوى في قوله ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ ﴾ كأنه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدات؟ فَقيل: أسكنوهن". [3]

فقوله تعالى ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ ﴾؛ أي أسكنوا المطلقات من نسائكم في زمن العدة في الموضع الذي تسكنون فيه، ولو في

---

١) سورة النساء، جزء من الآية (١٩).
٢) سورة الطلاق، جزء من الآية (٦).
٣) الكشاف (٥٥٨/٤).

غرفة من غرف الدار التي تسكنون فيها، فإن لم تجدوا إلا حجرة بجانب حجرتكم فأسكنوهن فيها. [1]

وذلك لأن من الواقعة في قوله: ﴿ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم ﴾ فيها وجهان:

أحدهما: أنها للتبعيض. [2] أي ولو بعض مسكنكم حتى تكون قريبة منه، فيسهل عليه تفقده لها والحفاظ عليها وقضاء حاجاتها.

ويؤخذ منه؛ جواز تقسيم غرف المسكن إذا كان صالح للتقسيم، مع تجنب التقارب في المبيت إن كانت غير رجعية، أما إذا كان المسكن لا يسع مبيتين متفرقين خرج المطلق منه وبقيت المطلقة، كما روى أشهب عن مالك قال: " يخرج عنها إذا طلقها ويتركها في المنزل لقوله ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾[3].

الثاني: أنها لابتداء الغاية، قاله الحوفي وأبو البقاء. [4]

ويكون المراد إسكانهن فيما تسكنون فيه أنفسكم، أو في مسكن مشابه لما تسكنون فيه لا أقل مما أنتم عليه، ويكون بقدر أحوالكم وسعتكم وطاقتكم،

---

١) ويفسر ذلك قول قتادة: " لو لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه. تفسير ابن كثير (١٥٢/٨) الدر المنثور للسيوطي (٢٠٧/٨) الناشر: دار الفكر – بيروت، والتحرير والتنوير لابن عاشور (٣٢٧/٢٨).

٢) البحر المحيط لأبي حيان (٢٠١/١٠)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٢٧/٢٨).
قال الزمخشري: " هي من التبعيضية مبعضها محذوف، معناه: أسكنوهن مكاناً من حيث سكنتم، أي: بعض مكان سكناكم". الكشاف (٥٥٨/٤) واختاره الرازي في مفاتيح الغيب (٥٦٤/٣٠).

٣) يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦٦/١٨) وهذا الكلام في حق الطلاق البائن.
وقال صاحب اللباب " إن كانت الدار التي طلقها فيها ملكه يجب عليه أن يخرج منها ويترك الدار لها مدة عدتها، وان كانت بإجارة فعليه الأجرة، وان كانت عارية فرجع المعير فعليه أن يكتري لها داراً تسكنها". (١٦٧/١٩).

٤) يراجع: البحر المحيط لأبي حيان (٢٠١/١٠)، والدر المصون للسمين الحلبي (٣٥٦/١٠).
وقيل: "من" صلة؛ أي أسكنوهن حيث سكنتم مطلقات نسائكم؛ قاله الكسائي.
يراجع: الوسيط للواحدي (٣١٥/٤) ومعالم التنزيل للبغوي (١١١/٥)، وزاد المسير لابن الجوزي (٣٠١/٤).

ودل عليه قوله ﴿ مِّن وُجْدِكُمْ ﴾؛ لأنه ربما سكن الإنسان في ماضي الزمان ما لا يقدر عليه الآن، ففيه عدم التكلف بما يشق حتى تبقى الصلة.

السكن للمطلقة الرجعية:

أجمع الفقهاء أن المطلقة الرجعية عدتها في بيت الزوجية، فلا يجوز للزوج إخراجها من البيت الذي كانت فيه؛ لأنه يحتاج إلى المسكن، أو لكونه يكره مساكنتها حتى تكمل عدتها.

يفهم ذلك من قوله تعالي ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ [1] أي لا تخرجوا المعتدات من نسائكم من المساكن التي كنتم أسكنتموهن فيها قبل الطلاق إلى أن تنقضي عدتهن، فهي الأحق بسكنه.

لهذا نجد أن الحق (سبحانه وتعالي) أضاف البيوت إلى ضمير النساء فقال ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ ﴾ لما يلي:

١) التأكيد على عدم إخراجهن من بيت الزوجية حتى انقضاء العدة، لأنه لا يُطرد المرء من بيته.

" فبيوتهن التي نهى الله تعالى عن إخراجهن منها، هي البيوت التي كانت تسكنها قبل الطلاق، فأمره بإقرارها في بيتها، ونسبه إليها بالسكنى". [2]

٢) قد لا تجد المطلقة مسكناً؛ لأن غالب النساء ليس لهن أموال، وإنما هن عيال على الرجال، فلما كانت المعتدة ممنوعة من الزواج كان إسكانها حقاً على مفارقها حتى تحل للزواج. [3]

---

١) سورة الطلاق، جزء من الآية (١).
قال ابن تيمية: "هذه الآية في المطلقة الرجعية، فإن زوجها أحق بها ما دامت في العدة".
جامع المسائل لابن تيمية (٢٧٧/١) الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.
٢) أحكام القرآن، للكيا الهراسي الشافعي (٤٢٠/٤) الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
٣) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨ / ٣٠٤) بتصرف.

٣) إدخال الشعور على كل من الرجل والمرأة أن الحياة الزوجية ما زالت قائمة بينهما في أثناء العدة؛ وذلك ببقائها في بيت الزوجية، إذ لا يزال البيت بيتها، وهذا فيه جبر لخاطرها.

" فاستحقاقهن للمكث في بيوت أزواجهن مدة عدتهن كاستحقاق المالك لما يملكه". (١)

٤) فيه دلالة على تشبثها ببيتها وتمسكها بزوجها، واحترامها لسابق علاقتها به، واعتزازها بما كان معه من حسن الذكرى، فيكون أدعى لمرضاته.

فإذا لم يكن للزوج مسكناً، كان عليه أن يعين لها مسكناً عن طريق الشراء أو الإيجار أو غير ذلك، فلكل معتدة رجعية الحق في السكن على حساب الزوج ما دامت في عدتها منه.

ومن هنا تظهر الحكمة من بقاء المطلقة الرجعية في بيت الزوجية طوال مدة العدة لأسباب منها:

١) التهيئة لعودة الحياة الزوجية من جديد، فوجودها معه في بيت الزوجية قد يكون سبباً لحل المشكلة التي كان الطلاق من أجلها، وقد يرى منها ما يعجبه ويسره، أو يعاتبها وتعاتبه فيعتذر لها أو تعتذر له، فيحل الوفاق محل الشقاق، ويتراجع عن طلاقها ما دامت في عدتها.

وهذا ما أشار الحق سبحانه وتعالى في ختام الآية بقوله ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ۝١﴾ من إتاحة الفرصة للرجعة، فهذه المدة كافية لمراجعة النفس وزوال ما بها من شحناء وتوتر، والعودة إلى حالة الهدوء

---

١) التفسير الوسيط للأستاذ الدكتور / محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر السابق. (١٤/ ٤٤٥).
قال القرطبي: "هي إضافة إسكان وليست إضافة تمليك، كما في قوله تعالي ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ سورة الأحزاب، جزء من الآية (٣٤)، وقوله تعالي ﴿ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ سورة الأحزاب، جزء من الآية (٣٣) وهذا يسمي في الفقه بملك الانتفاع دون العين. (١٨/١٥٤).

والطمأنينة، والندم على ما حدث، والرغبة في الإصلاح، والموازنة بين المصالح والمفاسد؛ لأن الطلاق أمر صعب وشاق عليهما.

لذا من أكبر الخطأ: أن تَخرج من بيتها، أو تُخرج عند وقوع الطلاق، فخروجها يؤدي إلى اتساع المشكلة وعدم القدرة على حلها.

٢) تكريماً لها وصيانة لعرضها، وفي حال وجود حمل لا تحصل فيه شبه. [١]

٣) إن حدثت مراجعة وكانت موجودة في بيت الزوجية، لم يفحش الزوج في المقاطعة.

وبهذا يظهر حرص الشريعة الإسلامية على بقاء الأسرة المسلمة إلى أبعد مدى بإتاحة الفرصة لدي الزوجين للاستمرار، وأن تظل المودة فيما بينهما حتى أثناء فترة العدة وبعدها، لكن المجتمعات اليوم بات الأصل فيها أن الزوجة لو فكرت في الطلاق، أو تلفظ الزوج بكلمة الطلاق تأخذ أغراضها وتذهب لبيت أهلها، وهو مخالف لما جاء به الشرع.

وعلى هذا؛ فالمطلقة الرجعية لها الحق في النفقة بالمعروف، والمسكن المناسب في حدود استطاعة زوجها حتى تنقضي عدتها، أما بعد انقضاء العدة فلا نفقة ولا سكنى للمطلقة، إلا إذا كانت حاضنة للولد ولم يكن لها مسكن فالراجح أن سكناها يلزم الزوج.

"والأوجه لزوم أجرة المسكن على من لزمه نفقة المحضون، فإن السكن من النفقة، لكن هذا إن لم يكن لها مسكن، أما لو كان لها مسكن يمكنها أن تحضن فيه الولد ويسكن تبعاً لها، فلا تجب الأجرة لعدم احتياجه إليه". [٢]

---

١) ذهب بعض المفسرين إلى أن حكمة توفير السكنى للمطلقة؛ "حفظ الأعراض" حيث يكثر التفاف العيون لها، وقد يتسرب سوء الظن فيها، فيكثر الاختلاف عليها، ولا تجد ذا عصمة يذب عنها فلذلك شُرِعت لها السكني ولا تخرج إلا لحاجتها. وهذه الحكمة من قبيل المظنة. يراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٠٤/٢٨).

٢) يراجع: «العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية» (١/ ٥٩)، المؤلف: ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ)، الناشر: دار المعرفة، والموسوعة الفقهية الكويتية (١٧/ ٣١٢). صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، عدد الأجزاء: ٤٥ جزءا.

السكن للمطلقة البائنة:

أما إن كانت معتدة من طلاق بائن وليست حاملاً، فاختلف الفقهاء في سكناها ونفقتها إلى أقوال:

أحدها: لا نفقة ولا سكنى: وهو مذهب الحنابلة. [1] **وحجتهم في عدم السكنى:**

١ـــ ما رواه مسلم من حديث فاطمة بنت قيس (ﷺ) لما طلقها زوجها ثلاثاً، فلم يفرض لها رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى وأمرها أن تعتد في بيت عبد الله بن أم مكتوم. [2]

٢ـــ وأخرج الإمام مسلم في صحيحه أن مروان بن الحكم أرسل إلى فاطمة بنت قيس يسألها عن الحديث فحدثته به فقال مروان: لَمْ نَسْمَعْ هَذَا الْحَدِيثَ إِلَّا مِنِ امْرَأَةٍ، سَنَأْخُذُ بِالْعِصْمَةِ الَّتِي وَجَدْنَا النَّاسَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ

---

١) وهو ما ذهب إليه عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله، وفاطمة بنت قيس ﷺ وبعض التابعين؛ كعطاء وحماد وإسحاق وأبي ثور. يراجع: أحكام القرآن للطحاوي (٣٥٩/٢)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦٦/١٨)، واختاره ابن الجوزي فقال: " لا سكنى لها ولا نفقة". زاد المسير (٣٠١/٤). واختاره الشوكاني فبعد أن ذكر هذا المذهب قال: "وهذا هو الحق. فتح القدير (٢٩٣/٥).
وقد جاء في كتب الحنابلة ما يفيد أن المطلقة التي ليس لها رَجْعة، لا تجب لها سكنى ولا نفقة". يراجع: المغني لابن قدامة (١٩٠/٧) الناشر: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض.
٢) والحديث بتمامه: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: حدثتني فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس. أن أبا عمرو المخزومي طلقها ثلاثاً، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الْيَمَنِ، فَقَالَ لَهَا أَهْلُهُ: لَيْسَ لَكِ عَلَيْنَا نَفَقَةٌ، فانطلق خالد بن الوليد في نفر من بني مخزوم إلى رسول الله (ﷺ) وهو عند ميمونة، فقال: يا رسول الله! إن أبا عمرو طلق فاطمة ثلاثاً، فهل لها من نفقة؟ فقال رسول الله (ﷺ):« لَيْسَتْ لَهَا نَفَقَةٌ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ»، وَأَرْسَلَ إِلَيْهَا أَنْ لَا تَسْبِقِينِي بِنَفْسِكِ، (أي لا تفعلي شيئاً من تزويج نفسك قبل إعلامك لي بذلك) وَأَمَرَهَا أَنْ تَنْتَقِلَ إِلَى أُمِّ شَرِيكٍ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهَا: «أَنَّ أُمَّ شَرِيكٍ يَأْتِيهَا الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ، فَانْطَلِقِي إِلَى ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى، فَإِنَّكِ إِذَا وَضَعْتِ خِمَارَكِ لَمْ يَرَكِ» ، فَانْطَلَقَتْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا مَضَتْ عِدَّتُهَا أَنْكَحَهَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ) أُسَامَةَ بْنَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ". أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١١١٥/٢)، ح (١٤٨٠)، كتاب الطلاق، بَابُ الْمُطَلَّقَةِ ثَلَاثًا لَا نَفَقَةَ لَهَا. وفي رواية «لَا نَفَقَةَ لَكِ، وَلَا سُكْنَى».

فَاطِمَةُ، حِينَ بَلَغَهَا قَوْلُ مَرْوَانَ: فَبَيْنِي وَبَيْنَكُمُ الْقُرْآنُ، قَالَ اللهُ (ﷻ):﴿ **لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ** ﴾، قَالَتْ: " هَذَا لِمَنْ كَانَتْ لَهُ مُرَاجَعَةٌ، فَأَيُّ أَمْرٍ يَحْدُثُ بَعْدَ الثَّلَاثِ؟ فَكَيْفَ تَقُولُونَ: لَا نَفَقَةَ لَهَا إِذَا لَمْ تَكُنْ حَامِلًا؟ فَعَلَامَ تَحْبِسُونَهَا؟ ".[1]

٣. قول النَّبِيُّ (ﷺ) لفاطمة: «إِنَّمَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ عَلَى مَنْ لَهُ عَلَيْهَا الرَّجْعَةُ».[2]

الثاني: لها السكنى دون النفقة: وهو مذهب الإمام مالك والإمام الشافعي.[3]

---

١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (١١١٧/٢)، ح (١٤٨٠)، كتاب الطلاق، بَابُ الْمُطَلَّقَةِ ثَلَاثًا لَا نَفَقَةَ لَهَا.

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن الشعبي، قال: دَخَلْتُ على فاطمة بنت قيس فسألتها عن قضاء رسول الله ﷺ عليها، فقالت: طلقها زوجها البتة، فقالت: فخاصمته إلى رسول الله ﷺ في السكنى والنفقة، قالت: «فلم يجعل لي سكنى، ولا نفقة، وأمرني أن أعتد في بيت ابن أم مكتوم» (١١١٧/٢)، ح (١٤٨٠).

٢) والحديث عَنْ عَامِرٍ قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ فَقُلْنَا لَهَا حَدِّثِينَا فِي قَضَاءِ النَّبِيِّ (ﷺ) فِيكِ قَالَتْ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ(ﷺ) وَمَعِي أَخُو زَوْجِي فَقُلْتُ: إِنَّ زَوْجِي طَلَّقَنِي وَإِنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنْ لَيْسَ لِي سُكْنَى وَلَا نَفَقَةٌ قَالَ: «بَلَى لَكِ سُكْنَى وَنَفَقَةٌ» قَالَ: إِنَّ زَوْجَهَا طَلَّقَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ النَّبِيُّ(ﷺ): «إِنَّمَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ عَلَى مَنْ لَهُ عَلَيْهَا الرَّجْعَةُ» قَالَتْ: فَلَمَّا قَدِمْتُ الْكُوفَةَ طَلَبَنِي الْأَسْوَدُ بْنُ يَزِيدَ يَسْأَلُنِي عَنْ ذَلِكَ، وَإِنَّ أَصْحَابَ ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُونَ: لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةِ . يراجع: سنن الدارقطني (٤٢/٥)، ح (٣٩٥٤)، كتاب الطلاق والخلع الإيلاء، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، والفوائد للبزَّاز (٤١٢/١)، ح (٤٥٤) الناشر: دار ابن الجوزي - السعودية / الرياض، الطبعة: الأولى، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل إِنَّمَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ عَلَى مَنْ كَانَتْ لَهُ رَجْعَةٌ " (٣٢٧/٤٥)، ح (٢٧٣٤٠)، مسند القبائل، من حديث فاطمة بنت قيس.

٣) جاء في كتب المالكية؛ أن الإمام مالك أوجب في المبتوتة السكنى دون النفقة.

يراجع: أحكام القرآن لابن العربي (٢٨٦/٤) الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة.

وجاء عن الإمام مالك في قوله تعالى ﴿ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ ﴾ قال:" هذه الآية في المطلقات اللاتي بن من أزواجهن فلا رجعة لهم عليهن وليست حاملا، فلها السكنى ولا نفقة لها ولا كسوة، لأنها بائن منه، لا يتوارثان ولا رجعة له

وحجتهم في وجوب السكنى:

١ـــ قوله ﷺ لفريعة بنت مالك بن سنان: "امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله". (١)

٢ _ الحق سبحانه لما ذكر السكنى في قوله ﴿ أَسْكِنُوهُن ﴾ أطلقها لكل مطلقة فعم بالسكنى المطلقات كلهن، فالضمير المنصوب في﴿ أَسْكِنُوهُن ﴾ عائد إلى النساء المطلقات في قوله: ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ﴾ وليس فيما تقدم من الكلام ما يصلح لأن يعود عليه هذا الضمير إلا لفظ النساء، ومن قال بأن الإسكان خاص بالمعتدات الحوامل فإنه ينافي قوله تعالى: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ ﴾ فتعين عود الضمير إلى النساء المطلقات كلهن، وبذلك يشملَ المطلقة الرجعية والبائنة والحامل، كما جاء في أول السورة من إرادة الرجعية والبائنة من لفظ ﴿ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾. (٢)

الثالث: **لها السكنى والنفقة**: وهو مذهب الحنفية والثوري وكثير من فقهاء الصحابة والتابعين. (٣)

ردهم على حديث فاطمة بنت قيس:

وقد ردّوا على الاستدلال بحديث " فاطمة بنت قيس (رضي الله عنها) بقولهم: " ظهر من السلف النكير على راوية فاطمة بنت قيس، ومن شرط قبول أخبار الآحاد تعريها من نكير السلف، وهذا الحديث أنكره عمر بن

عليها، وإن كانت حاملا فلها النفقة والكسوة والمسكن حتى تنقضي عدتها. يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦٦/١٨) بتصرف واختصار.
وفي الأم للشافعي (٢٥٣/٥) ما يفيد ذلك. الناشر: دار المعرفة – بيروت، سنة النشر: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١) أخرجه أبو داود (٢٩١/٢)، ح (٢٣٠٠)، كتاب الطلاق، بَابٌ فِي الْمُتَوَفَّى عَنْهَا تَنْتَقِلُ، والترمذي في سننه (٥٠٠/٣)، ح (١٢٠٤) أبواب الطلاق، باب ما جاء أين تعتد المتوفى عنها زوجها؟ وقال حسن صحيح.

٢) يراجع: أحكام القرآن لابن العربي (٢٨٧/٤).

٣) منهم: عائشة وعمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعودﷺ وغيرهم. وجاء في كتب الحنفية " أن المبتوتة لها النفقة والسكنى ما دامت في العدة ". يراجع أحكام القرآن للجصاص (٣٥٦/٥)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، والمبسوط للسرخسي (٢٠١/٥) الناشر: دار المعرفة – بيروت.

الخطاب ﷺ على فاطمة بنت قيس، فقال: لا نترك كتاب ربنا وسنة نبينا لقول امرأة، لا ندري لعلها حفظت أو نسيت، لها السكنى والنفقة". [1]

الجمع بين الآية والحديث:

ويمكن الجمع بين الآية والحديث؛ أنه (ﷺ) أمرها بالانتقال لأمور أخرى منها؛

ما رُوي أنها استطالت بلسانها على أحمائها فكانت بمنزلة الناشز، فسقطت نفقتها وسكناها جميعا، فكانت العلة الموجبة لإسقاط النفقة هي الموجبة لإسقاط السكنى. [2]

أو لأنها كانت في مكان وحش فخيف على ناحيتها، فلذلك رخص لها رسول الله (ﷺ) السكنى في بيت ابن أم مكتوم كما جاء في رواية السيدة عائشة (رضي الله عنها). [3]

---

١) قاله الجصاص في كتابه أحكام القرآن (٣/ ٦١٥)، ط/ العلمية.
وأخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي إسحاق، قَالَ: كُنْتُ مَعَ الْأَسْوَدِ بْنِ يَزِيدَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ، وَمَعَنَا الشَّعْبِيُّ، فَحَدَّثَ الشَّعْبِيُّ بِحَدِيثِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ، «أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ)، لَمْ يَجْعَلْ لَهَا سُكْنَى وَلَا نَفَقَةً» ، ثُمَّ أَخَذَ الْأَسْوَدُ كَفًّا مِنْ حَصًى، فَحَصَبَهُ بِهِ، فَقَالَ: وَيْلَكَ تُحَدِّثُ بِمِثْلِ هَذَا، قَالَ عُمَرُ: لَا نَتْرُكُ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّنَا (ﷺ) لِقَوْلِ امْرَأَةٍ، لَا نَدْرِي لَعَلَّهَا حَفِظَتْ، أَوْ نَسِيَتْ، لَهَا السُّكْنَى وَالنَّفَقَةُ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ﴾. يراجع: صحيح مسلم (١١١٨/٢)، ح (١٤٨٠)، كتاب الطلاق، باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها. وفي رواية: عن الشعبي قال: لقيني الأسود بن يزيد فقال: يا شعبي اتق الله وارجع عن حديث فاطمة بنت قيس، فإن عمر كان يجعل لها السكنى والنفقة.
٢) وقال سعيد بن المسيب: إنما نقلت فاطمة لطول لسانها على أحمائها وكان للسانها ذرابة. يراجع: مسند إسحاق بن راهوية (٢٣٢/٥)، ح (٢٣٧٨) الناشر: مكتبة الإيمان - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ - ١٩٩١، ومعالم التنزيل للبغوي (١١٣/٥).
٣) والحديث رواه الإمام البخاري في صحيحه أن عروة بن الزبير ﷺ قال للسيدة عائشة (رضي الله عنها): أَلَمْ تَرَيْ إِلَى فُلاَنَةَ بِنْتِ الحَكَمِ، طَلَّقَهَا زَوْجُهَا البَتَّةَ فَخَرَجَتْ؟ فَقَالَتْ: «بِئْسَ مَا صَنَعَتْ» قَالَ: أَلَمْ تَسْمَعِي فِي قَوْلِ فَاطِمَةَ؟ قَالَتْ: «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ لَهَا خَيْرٌ فِي ذِكْرِ هَذَا الحَدِيثِ» وَزَادَ ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَابَتْ عَائِشَةُ، أَشَدَّ العَيْبِ، وَقَالَتْ: «إِنَّ فَاطِمَةَ كَانَتْ فِي مَكَانٍ وَحْشٍ، فَخِيفَ عَلَى نَاحِيَتِهَا، فَلِذَلِكَ أَرْخَصَ لَهَا النَّبِيُّ ﷺ". (٥٨/٧)، ح (٥٣٢٥)، بَابُ قِصَّةِ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ. ويشهد له رواية مسلم

وهذا ما أميل إليه؛ من توفير السكنى للمطلقة البائنة أثناء عدتها، لكن لا يجوز لها أن تسكن مع مطلقها في بيت واحد، لأنها أجنبية عنه، ولما يترتب على ذلك من الاختلاط والنظر وغير ذلك من المحرمات.

" لو كانت دار المطلق متسعة لهما، وأمكنها السكنى في موضع منفرد كالحجرة، وعلو الدار وبينهما باب مغلق وسكن الزوج في الباقي جاز، فإن لم يكن بينهما باب مغلق، لكن لها موضع تستتر فيه بحيث لا يراها، ووجد معها محرم تتحفظ به: جاز أيضا". [1]

ويكون توفير المسكن لها مكافأة لها على ما أسلفت في بعض أيام زواجها من طيب المعاملة، وتعويضاً لها عما أصابها من أضرار البينونة.

(١١٢١/٢)، ح (١٤٨٢) بَابُ الْمُطَلَّقَةِ ثَلَاثًا لَا نَفَقَةَ لَهَا فقد ورد فيه أنها قالت: «أخاف أن يقتحم علي».

١) وعند الحنابلة تركه أولى. يراجع: «الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف» (٩/ ٣١٣) المؤلف: علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان الدمشقي الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية.

الفصل الثاني

مساكن الظالمين في الدنيا

قص القرآن الكريم علينا أنباء أقوام كانوا قبلنا، سكنوا الأرض وعمروها، وكانوا أولي قوة وبأس شديد، ولكنهم كذبوا المرسلين غروراً بما لديهم من قوة أو عندهم من علم، فطغوا وتجبروا فأخذهم الجبار أخذ عزيز مقتدر، وأصبحوا عبرة للعالمين، قال تعالى﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[1]

ولكن قبل نزول العذاب ينبههم الحق تبارك وتعالى عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب، قال تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[2] وقال عز وجل﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾[3] فلا يعذب الله أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه.

ولا يلزم تأخير العقوبة إلى يوم القيامة، فإنه قد يُملي له ثم يأخذه أخذاً شديداً، وفي الحديث من رواية أبي موسى أن رسول الله (ﷺ) قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» قال: ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[4]

مآل مساكنهم في القرآن الكريم

جاء في القرآن الكريم أن القرى الظالمة التي نزل العذاب بها، منها ما بقيت آثارها بوجود ديارهم ومساكنهم بعد هلاك أصحابها ويراها الناظر إليها؛ كالزرع القائم على ساقه في الأرض، مثل آثار قوم عاد وثمود، ومنها ما مُحِيَتْ آثارها بدمار ديارهم ومساكنهم وزوالها بأهلها، فصارت كالزرع

---

١) سورة هود، الآية (١١٧).
٢) سورة الإسراء، جزء من الآية (١٥).
٣) سورة الأنعام، الآية (١٣١).
٤) سورة هود، الآية (١٠٢).
الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٧٤)، ح (٤٦٨٦) كتاب «التفسير» باب: " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة..."، ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧) ح (٢٥٨٣) كتاب «البر والصلة» باب: تحريم الظلم.

المحصود الذي استؤصل بقطعه، ولم يبق منه باقية، كديار قوم نوح، وقرى قوم لوط، ودار قارون، وقد ذُكر ذلك إجمالاً في سورة هود.

فبعد أن قص القرآن الكريم علينا من أخبار الأمم الماضية ما كان منهم وعقابهم، ختم هذه القصص بقوله ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ... ﴾؛ أي من تلك القرى الظالمة ما بقي حِيطَانُها، وكما جاء في قوله تعالى ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[1] فديارهم قد خَلَتْ مِنهم، وآبارها لا يُستقى منها، وقصورها العالية المزخرفة ظلت قائمة.

﴿ وَحَصِيدٌ ﴾[2] أي ومنها ما لم يَبْق منها شيء، من قولهم: زرع حصيد: إذا كان قد استؤصل قطعه. قال الضحاك: "قائم: لم يخسف، وحصيد: قد خسف.[3]

وفي الآية تشبيه بليغ، حيث شبه الحق سبحانه الباقي من آثار القرى وجدرانها بعد تدميرها بالزرع القائم على ساقه، وشبه ما دمّر مع أهله واندثر بالزرع المحصود.

وفي عصرنا الحالي مازال من آثار الحضارات السابقة ما هو قائم من بقايا أعمدة ونقوش، ومنها ما حُطِّم، كما سيتضح من خلال هذا الفصل.

---

١) سورة الحج، الآية (٤٥).
٢) سورة هود، جزء من الآية (١٠٠).
٣) البحر المحيط لأبي حيان (٢٠٧/٦) وبه قال ابن إسحاق: قائم: لم يهلك، وحصيد: قد هلك.
وقيل: القائم: العامر، والحصيد: الخراب، قاله ابن عباس. يراجع: النكت والعيون للماوردي (٢/ ٥٠٢) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٩٥/٩).

المبحث الأول

(من هلك بمسكنه)

في بعض الأحيان لم يقتصر الهلاك على الظالمين، بل تعدى إلى مساكنهم ووصل إلى القرية التي يقيمون فيها، فدّمرها وغير معالمها، قال تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾[1] فالقرى التي تم إبادتها وتحطيمها والقضاء عليها مع أهلها، بسبب ظلمهم وبغيهم وتجاوزهم حدود الحق ثم إنشاء وإيجاد غيرهم ليس بالقليل.

أصل القصم: كسر الشيء حتى ينقطع وينفصل عن غيره، يقال: قصم فلان ظهر فلان، إذا كسره حتى النهاية، بخلاف الفصم فهو صدع الشيء من غير قطع وانفصال.

وفيه إشارة إلى شدة الانتقام، حيث أصاب الدمار القرية وأهلها، كالحوادث التي لا تستقر معها الديار من خسف ونحوه، بخلاف إهلاك الأفراد بطاعون ونحوه، فلا يترك أثراً في القرية وإنما يؤثر في أهلها فحسب، فكأنه سبحانه أراد قرع أسماعهم وإنذارهم بأن وضع أمام أعينهم القُرَى المكذِّبة الظالمة، كيف أهلكها بأهلها فيأخذوا منها عِبْرة وعِظَة.

لذا؛ " أوقع سبحانه فعل القصم على القرى، للإشعار بأن الهلاك قد أصابها وأصاب أهلها معها، فالكل قد دمره- سبحانه- تدميرا، أما عند الإنشاء فقد أوقع الفعل على القوم فقال:﴿ وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ ﴾ للإيماء إلى أن هؤلاء القوم الآخرين، الذين لم يكونوا أمثال السَابقين، هم الذين ينشئون القرى ويعمرونها". [2]

فقصم ظهور الظالمين، واستخلافهم بالصالحين سهل ويسير، قال تعالى:﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [3]

---

١) سورة الأنبياء، الآية (١١).
٢) يراجع: تفسير الوسيط للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي (١٩١/٩).
٣) سورة إبراهيم، الآية (١٩، ٢٠).

وما روي عن بعض أهل التفسير والأخبار: إنه أراد أهل قرية بعينها باليمن؛ " فيحمل على سبيل التمثيل لا على التعيين، لأن كم تقتضي التكثير؛ قاله أبو حيان". [1]

هوان المساكن عليهم ومحاولة الفرار والهروب منها عند نزول العذاب

صور لنا القرآن الكريم حال الظالمين إذا شاهدوا بوادر العذاب هانت مساكنهم عليهم، قال تعالى: (فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ)؛ كسماع أصوات مؤذنة بالهلاك مثل الصواعق والرياح (إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾)[2] أي يسارعون بالخروج من قريتهم ويتركون مساكنهم التي كانوا يفتخرون بها ويركبون دوابهم؛ ظناً منهم أن ذلك ينجيهم.

"ويجوز أن شبهوا في سرعة سيرهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين لدوابهم، فهم يركضون الأرض بأرجلهم". [3] والمراد الهروب بسرعة.

وهم في ذلك الحين يقال لهم على طريق الاستهزاء والتهكم المرير والسخرية بهم:(لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ) [4] أي لا تحاولوا الهروب من قريتكم، وارجعوا إلى مَا كنتم فيه من لذاتكم وتنعُّمكم في دنياكم الملهية، وعودوا إلى مساكنكم المشيدة التي كنتم تفتخرون بها.

---

١) البحر المحيط لأبي حيان (٤١٣/٧).

وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبينا في مواضع كثيرة من كتاب الله، قال تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ سورة الإسراء.

٢) سورة الأنبياء، الآية (١٢).

٣) يراجع: الكشاف للزمخشري (١٠٥/٣)، والبحر المحيط لأبي حيان (٤١٣/٧).
وأصله: أن يضرب الرجل دابته برجله ليحثها على الجري والسرعة في المشي.

٤) سورة الأنبياء، جزء من الآية (١٣).

يقال لهم هذا الكلام من جهة المؤمنين، أو من جهة ملائكة العذاب، أو هذا تهكم بهم قدرا أي: قيل لهم قدرا. (١)

" لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ "؛ أي إذا سُئلتم عما جرى عليكم، ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة وهي أيضاً من جملة التهكم.

لكن ما هم فيه وقتها من خزي وخسران سيُخرس ألسنتهم، ولن يقولوا شيئاً، وإنما يكون قولهم وسلوكهم التفجع والحسرة بعد أن يئسوا من الخلاص وأدركوا أن الأمر جد لا هزل، وأن العذاب نازل بهم لا محالة، وأنه لا ينفعهم ركض، ولا ينقذهم فرار.

نموذج لمن هلك بمسكنه (قارون):

كان قارون من قوم موسى (عليه السلام)، آتاه الله المال الكثير فزعم أنه جمعه بعلمه واجتهاده، فجاءه التحذير من الله على لسان الصالحين من قومه بقولهم له ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝٧٧ ﴾(٢)، ولكنه لم يستجب لهم، ولم يستمع لنصحهم، بل تمادى في فخره وبغيه عليهم، فعاقبه الله بالخسف به وبداره في الأرض، قال تعالى: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ..).

الخسف: انشقاق الأرض وابتلاع ما عليها وإنزاله في باطنها، يقال: خَسَف الله بفلان الأرض، إذا غيبه فيها.

والخسف كان به وبداره التي فيها كنوزه وخزائنه في غمضة عين، كما يبتلع الحيوان فريسته، فهو وداره مخسوف بهما في باطن الأرض التي علا واستطال فوقها.

وعن ابن عباس أنه قال: خسف به إلى الأرض السابعة. (٣)

---

١) يراجع: المحرر الوجيز لابن عطية (٧٦/٤) والبحر المحيط لأبي حيان (٤١٣/٧) والتحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/١٧).
٢) سورة القصص، الآية (٧٦)، (٧٧).
٣) تفسير ابن كثير (٢٥٦/٦)

وثبت في الصحيح- عند البخاري: أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الخُيَلاَءِ، خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ» (١)

وهكذا طويت صفحة هذا الضال المغرور وذهب هو وداره، دون أن يكون له من ينصره أو يدفع عنه هذا المصير قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي ما كان له من جماعة أو عصبة تنصره من عذاب الله، "وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ " أي كان من الأذلين عند تلقي عقوبة الله تعالى.

وقد أهلك الحق سبحانه قبله أُناس كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعاً، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ (٢)

وقد جاءت الإشارة إلى هذا النوع من الهلاك في قوله تعالى:﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ....﴾ (٣) أي أفأمن الكافرون أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقَارون، وفي قوله تعالى﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ أي لو شئنا لخسفنا بهم الأرض، كما فعلنا بقَارون.

---

١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٧٧/٤)، ح (٣٤٨٥)، كِتَابُ أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ حَدِيثِ الغَارِ، والإمام مسلم في صحيحه (٣/ ١٦٥٣)، ح (٢٠٨٨)، كتاب اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ، بَابُ تَحْرِيمِ التَّبَخْتُرِ فِي الْمَشْيِ مَعَ إِعْجَابِهِ بِثِيَابِهِ. و(الخيلاء) هي الكبر والتبختر مع الإعجاب بالنفس. (يتجلجل) يغوص في الأرض والجلجلة الحركة مع الصوت.
وفي منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمى «تحفة الباري» لزكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري أنه قارون (٥٦٥/٦) الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م. وجزم الكلاباذي بأنه قارون وكذا قاله الجوهري في صحاحه، وفي فيض الباري على صحيح البخاري لمحمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي (٤/ ٤٢١) أنه قارون الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
٢) سورة القصص، جزء من الآية (٧٨).
٣) سورة النحل، جزء من الآية (٤٥).

المبحث الثاني

(من هلك دون مسكنه)

وهناك مساكن للطغاة لم يتم تدميرها، فقد هلك المكِين فيه ولم يُهلك المكان، وقُدّر بقاؤها خالية، لتتحدث عن مصارع أهلها، وتروي سبب خرابها، وتبقى عبرة وموعظة لغيرهم قال تعالى ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ ﴾[1] أي: إن أردت دليلا على هلاك الظالمين والانتقام منهم، فانظر إلى مساكنهم وقد أصبحت خالية منهم.

وهذا ما ذهب إليه غير واحد من المفسرين؛ بأن "خَاوِيَة" معناها؛ خالية من الناس والبيوت قائمة.

فقد ذكر ابن عاشور في تفسيره؛ " خالية، مصدره الخواء، أي البيوت باق بعضها في الجبال لا ساكن بها". [2]

وسبقه إلى ذلك ابن عطية في تفسيره فقال معناها: " خالية قفرا ". [3] أي لا ساكن فيها.

لكن ورد عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: "خاوية؛ أي ساقط أعلاها على أسفلها ". [4]

وقد جمع الإمام الرازي بين الرأيين فقال: " إن فُسّر الخاوي بالساقط، كان المعنى أنها ساقطة على سقوفها، ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف، من (خوي النجم إذا سقط)، وإن فُسّر الخاوي بالخالي، كان المعنى أنها خالية من أهلها من (خوي المنزل إذا خلا من أهله)". [5]

---

١) سورة النمل، جزء من الآية (٥٢).
٢) التحرير والتنوير (٢٨٥/١٩). وأصل الخواء الخلو، يقال: خوت الدار وخويت، ومنه خوت البطن إذا خلت من الطعام.
٣) المحرر الوجيز (٢٦٥/٤). وفي لسان العرب لابن منظور: "أَقْفَرتِ الدارُ: خَلَتْ، وأَقْفَرت مِنْ أَهلها: خَلَتْ" (١١٠/٥). وهو ما ذهب إليه أبو حيان في البحر المحيط (٢٥٤/٨)، وابن كثير في تفسيره (٢٠٠/٦) ومال إليه الشيخ المراغي (١٤٩/١٩).
٤) البحر المحيط (٢٥٤/٨). أي أصابها الهلاك والدمار.
٥) مفاتيح الغيب للرازي (٢٣٢/٢٣) بتصرف.

والذي أميل إليه في هذه الآية أنهم هلكوا دون مساكنهم لما يلي:

_ الآية وردت في قصة قوم صالح (عليه السلام) والأنسب لسياق القصة بقاء مساكنهم، فديارهم كانت معلومة لجميع قريش لأنها كانت في طريقهم إلى الشام.

_ هذه البيوت هي التي قال فيها رسول الله ﷺ لأصحابه، عام تبوك: «لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ "، وهو في الصحيح. (١)

_ الحق سبحانه لما أمر بالنظر والاعتبار بما جرى لهم من الهلاك في أنفسهم، بين ذلك بالإشارة إلى منازلهم وكيف خلت منهم. (٢)

_ هذا ما ذهب إليه كثير من أهل اللغة كالزجاج فقال: " والمعنى فانظر إلى بيوتهم خاوية بما ظلموا". وكذا قال الفراء والنحاس: "خالية عن أهلها خراباً، ليس بها ساكن". (٣)

وفي ذلك إشارة إلى هلاك الظالم وخراب بيته بظلمه، وهذا المعنى روي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب الله أن الظلم يخرب البيوت وتلا: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾. (٤)

وجاء في التوراة: "ابن آدم لا تظلم يخرب بيتك". (٥)

* ويوضحه قوله تعالى ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾(١) فالمساكن باقية والآبار

---

١) رواه الإمام البخاري في الصحيح (١٤٩/٤)، ح (٣٣٨٠)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وإلى ثمود أخاهم صالحا} [الأعراف: ٧٣]، وصحيح مسلم (٢٢٨٦/٤ ح ٢٩٨٠) كتاب الزهد، باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين.

٢) البحر المحيط لأبي حيان (٢٥٤/٨).

٣) معاني القرآن للزجاج (١٢٥/٤) ويراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢١٨/١٣) وفتح القدير للشوكاني (١٦٦/٤).

٤) التحرير والتنوير (٢٨٦/١٩).

٥) يراجع: المحرر الوجيز لابن عطية (٢٦٥/٤)، البحر المحيط لأبي حيان (٢٥٤/٨). (٢٥٤/٨).

والآبار موجودة وإن كانت معطلة عن أداء مهمتها فبسبب هلاك وارديها، وبقاء قصورهم دليل على أن الدمار لم يلحقها.

وذكر الطاهر ابن عاشور في تفسيره؛ " أن القصور المشيدة المُخَلفة عن القرى التي أهلكها الله كثيرة مثل: قصور ثمود في الحجر، وقصور الفراعنة في صعيد مصر". (٢)

نموذج لمن هلك دون مسكنه (قوم هود)

ومما يدل على بقاء مساكنهم بعد هلاكهم أمور منها:

(أ): رؤيا المساكن دون أهلها

لم يقف الأمر عند حد السماع بهلاك مساكن الظالمين، بل تجاوز ذلك حتى وصل إلى حد النظر والمشاهدة، قال تعالى:﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾(٣)

هذه الآية وردت في دمار قوم هود (عليه السلام) دون مساكنهم.

عندما أنعم الله عليهم بكل مقومات القوة والعمران في الأرض، غرتهم قوتُهم، وبطروا نعمتهم، ورانت على قلوبهم الغفلة، وقالوا لهود عليه السلام: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٤) ولم يزدادوا إلا عتواً واستكباراً وسخرية من دعوته، حتى قالوا﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ..﴾ (٥) وانقطع عنهم المطر، وبينما هم ينتظرون الغيث بعد طول انقطاع وشدة ترقب، شاهدوا سحاباً فيه مطر متجهاً نحو مساكنهم فقالوا: هذا ما ننتظر ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾(٦) أي هذا سحاب ننتظر منه المطر، وما كادوا يفرحون به، حتى رد عليهم نبيهم هود

---

١) سورة الحج، الآية (٤٥).
٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨٦/١٩).
٣) سورة الأحقاف، الآية (٢٥).
٤) سورة الشعراء، الآية (١٣٦).
٥) سورة فصلت، جزء من الآية (١٥).
٦) سورة الأحقاف، جزء من الآية (٢٤).

(عليه السلام) فرحتهم بأن هذا هو العذاب الذي طالبتم به، هواء متحرك به عقاب شديد.

حال مساكنهم عند نزول العذاب بهم:

استجابتْ الريحُ لأمر ربها وأهلكتهم إهلاكاً، قال تعالى﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾[1] أي التي لا خير فيها، وقال في سورة فصلت ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾[2] أي شديدة، وقد استمر هبوبها سبع ليالٍ وثمانية أيام بشدة وقوة دون انقطاع، حتى أهلكتهم جميعا وأبقتهم صرعى جلوساً في أماكنهم كجذوع النخل قال تعالى ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[3] وقال تعالى ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾[4] أي لم تُبق لهم شيئا من متاعهم قال تعالى ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾[5]، وقال تعالى ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾[6] أي ما أمرت بتدميره.

أما المساكن ما دمرتها الريح وتم استثناؤها فلم تُدَمر قال تعالى ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾[7] أي فأصبح قوم هود وقد هلكوا وفنوا دون مساكنهم هي التي بقيت بعد تدميرهم، وظلت قائمة وباقية أمامهم.

---

١) سورة الذاريات، الآية (٤١).
٢) سورة فصلت، جزء من الآية (١٦).
٣) سورة القمر، الآية (٢٠).
٤) سورة الحاقة، الآية (٧،٨).
٥) سورة الذاريات، الآية (٤٢).
٦) سورة الأحقاف، الآية (٢٥).
٧) اختلف القرّاء في الياء والتاء في قوله (يرى) ورفع النون من {مساكنهم} ونصبها ـ قرأ عاصم وحمزة ويعقوب (لا يُرَى) بالياء وضمها (إلا مَسَاكِنُهُمْ)، برفع النون، على مَا لم يسم فَاعله والمعنى: لا يرى في بلادهم شيء إلا مساكنهم؛ لأنهم قد أهلكوا
٢ ـ وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو والكسائي (لا تَرَى) بالتاء وفتحها على الخطاب (إلا مَساكِنَهُمْ) بِنصب النُّون؛ أي لا ترى شيئاً أيها المخاطب، لو كنت حاضراً إلا مساكنهم، أو على الخطاب النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وسلم أَي لَا ترى شَيْئا يا محمد إلا مساكنهم. السبعة في القراءات لابن مجاهد (٥٩٨)، وحجة القراءات لابن زنجلة (٦٦٦). والقراءتان تفيدا أنهم قد هلكوا دون مساكنهم.

فصح بالنص أنها لم تدمر من الأشياء إلا ما أمرت بتدميره.

وقد جاء في كتب التفسير: " لما أراد اللهُ إهلاكهم سلَّط عليهم الريح العاصف، وفاجأهم العذاب فدخلوا البيوت يحتمون بها من شدة العواصف، فدخلتْ الريح وراءهم البيوت، ودخلت عليهم الرمال حتى دفنتهم فيها، ونفس الريح التي طمرتهم هي التي كشفتْ عنهم وأظهرتْ جيَفهم ليعتبر الناسُ بها.[١]

ونجى الله هوداً (عليه السلام) والذين ءامنوا معه وتم إهلاك المكذبين المعاندين عن آخرهم، وما أغنت عنهم بيوتهم، وحقت عليهم لعنة الله في الدنيا وفي الآخرة، قال تعالى:﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[٢]

نموذج آخر لمن هلك دون مسكنه (قوم ثمود)

(ب): المشي في مساكنهم:

كان العرب يمرون على مدائن ثمود في رحلتهم إلى الشام، ويحطون رحالهم هناك، كما كانوا يمرون على الأحقاف ديار قوم عاد في رحلتهم إلى اليمن، قال تعالى﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ...﴾ [٣]

وفي موضع آخر ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ...﴾ [٤]

فمدائن قوم صالح ـ عليه السلام ـ ظلت باقية بعد هلاكهم، وقد مر عليها رسول الله (ﷺ) وهو في طريقه إلى تبوك ورأى بيوتهم، ومنع أصحابه من الدخول إليها إلا باكين، كما أمرهم بالإسراع عند المرور، لئلا يصيبهم ما

---

١) يراجع: معالم التنزيل للبغوي (٢٠٠/٤) والكشاف للزمخشري (٣٠٨/٤) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠٦/١٦).
٢) سورة الأعراف، الآية (٧٢).
٣) سورة طه، جزء من الآية (١٢٨)، والمراد يسيرون في بلادهم ويمرون على ديارهم. ديارهم.
٤) سورة السجدة، جزء من الآية (٢٦).

أصابهم، ففي الحديث أن رسول الله (ﷺ) قال: «لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ "، وهو في الصحيح. (١)

ومعنى باكين؛ أي خائفين، وذلك اقتصارا على ضرورة المرور لئلا يتعرضوا إلى تحقق حقيقة السكنى التي قدر الله انتفاءها بعد هلاك أقوامها، فربما قدر إهلاك من يسكنها لشؤم معاصيهم، وتحقيقا لقدره.

وجاء في رواية: " ثُمَّ قَنَّعَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) رَأْسَهُ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ". (٢)

_ والأكثر من ذلك: أنه (ﷺ) منعهم من الأكل أو الشرب منها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله (ﷺ) قال: «لَمَّا نَزَلَ الحِجْرَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، أَمَرَهُمْ أَنْ لاَ يَشْرَبُوا مِنْ بِئْرِهَا، وَلاَ يَسْتَقُوا مِنْهَا»، فَقَالُوا: قَدْ عَجَنَّا مِنْهَا وَاسْتَقَيْنَا، «فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَطْرَحُوا ذَلِكَ العَجِينَ، وَيُرِيقُوا ذَلِكَ المَاءَ». (٣)

(ج): التبين من المساكن:

قال تعالى:﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ﴾ (٤)؛ أي ظهر لكم من بيوتهم عن طريق مشاهدة مساكنهم وما حل بها من خراب وخلوها منهم عند مروركم لها، فلم تعانوا من غموض الرؤية بل اتضحت وظهرت لكم عاقبة ظلمهم دون ارتياب.

وقد كانت العرب في عصر النبي (ﷺ) تعرف مساكن عاد وثمود معرفة تامة، فقوم هود- عليه السلام- كانوا يسكنون (الأحقاف) جنوب الجزيرة العربية، وهي قريبة من بلاد اليمن، بالقرب من حضرموت، وقوم

---

١) سبق تخريجه.
٢) رواه الإمام البخاري في الصحيح (٧/٦)، ح (٤٤١٩)، كِتَابُ المَغَازِي، باب نُزُولِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحِجْرَ.
٣) رواه البخاري في صحيحه (١٤٨/٤)، ح (٣٣٧٨)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وإلى ثمود أخاهم صالحا} [الأعراف: ٧٣]
٤) سورة العنكبوت جزء من الآية (٣٨). قال الفرّاء: " لا يرى الناس، لأنّهم كانوا تحت الرمل، وإنّما تُرى مساكنهم لأنّها كانت قائمة". انظر/ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٠٨/١٦).

صالح- عليه السلام- كانوا يسكنون الحجر شمال الجزيرة العربية، بالقرب من وادي القرى، وما زالت مساكنهم تعرف حتى الآن بقرى صالح، وكانوا يمرون عليها في أسفارهم إلى اليمن والشام في رحلتي الشتاء والصيف. (١)

والمشاهدة هي التي تحمل العقلاء على الاعتبار والاتعاظ.

والمراد من الآية؛ غرس العبرة والعظة في نفوس مشركي مكة، وأن الله سبحانه لو شاء لأصاب كفار مكة بذنوبهم كما أصاب الذين من قبلهم، قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ..﴾(٢)

ومع تطور الثورة العلمية الآن؛ استطاعوا تصوير ما في باطن الأرض، وظهرت كثير من آثار السابقين تحت التراب؛ لأن عوامل التعرية طمرتها بمرور الزمن.

السكن في مساكن الظالمين

أكدت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية أن من مساكن الظالمين ما لم يتم تدميرها، بل ظلت باقية وقائمة بعد هلاك أهلها، قال تعالى﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ ...﴾(٣) أي أن مساكنهم خلت منهم.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل سُكنت من غيرهم أم لا؟

اختلف المفسرون في ذلك إلى أقوال:

الأول: أنها سُكنت من غيرهم، والمراد بالسكن:

<u>الحلول والإقامة في بيوتهم</u>؛ واستدلوا على ذلك بقوله تعالى﴿ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾(٤) أي وحللتم في مساكن الكافرين السابقين الذين ظلموا

---

١) يراجع: التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٤٩/١٣)، والتفسير الوسيط، للأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي (٥٧٥/٧).
٢) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٠٠).
٣) سورة النمل، الآية (٥٢).
٤) سورة إبراهيم، الآية (٤٥).

أنفسهم؛ كالقُرى التي عُذِّب أهلها وقدر الله بقاءها خالية بعدهم؛ كديار عاد وثمود وغيرهم.

وإليه أشار الزمخشري بقوله: " السكنى من السكون الذي هو اللبث، والأصل تعدّيه بـ في، كقولك: أقام في الدار وقر فيها، ولكنه لما نُقل إلى سكون خاص تصرف فيه، فقيل: سكن الدار كما قيل: تبوّأها". [1]

ويكون قوله تعالى (وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ): أي بالنظر والمشاهدة كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم.

_ وقد جاء في موضع آخر؛ ما يؤكد أن هذه المساكن سكنت من بعدهم ولكنها لم تسكن إلا قليلاً، وذلك حينما زعم أهل مكة أنهم لو آمنوا بالنبي محمد (ﷺ) وبما جاء به لانتزع الناس منهم أرضهم، فذكّرهم ربنا تبارك وتعالى بما فعل بالأمم السابقة قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [2]

مع اختلافهم في الاستثناء في قوله (إلا قليلاً):

(أ) ذهب بعضهم إلى أن الاستثناء يرجع إلى المساكن؛ أي إلا قليلا منها سكن من غيرهم. [3]

فأكثرها قد دُمر أو صار خراباً. قاله الزجاج. [4]

---

١) الكشاف للزمخشري (٥٦٥/٢) وذكره أبو حيان في البحر المحيط (٤٥٣/٦)
قال الألوسي: (وَسَكَنْتُمْ) من السكنى بمعنى التبوء والاستيطان وهو بهذا المعنى مما يتعدى بنفسه، تقول سكنت الدار واستوطنتها إلا أنه عدي هنا بـ في حيث قيل: (فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) جرياً على أصل معناه فإنه منقول عن سكن بمعنى قر وثبت وحق ذلك التعدية بـ في". روح المعاني (٢٣٤/٧).
٢) سورة القصص، الآية (٥٨).
٣) ذكره الطبري في جامع البيان (٦٠٣/١٩) والزمخشري في الكشاف (٤٢٣/٣)، والرازي في مفاتيح الغيب (٧/٢٥).
٤) واعترض عليه، فقيل: لو كان الاستثناء يرجع إلى المساكن لقال إلا قليل، لأنك تقول: القوم لم تضرب إلا قليل، ترفع إذا كان المضروب قليلا، وإذا نصبت كان القليل صفة

أو لشؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم فلم يبق من يسكنها من أعقابهم إلا قليلاً.

(ب) الاستثناء من عموم أزمان محذوفة. والتقدير: إلا زماناً قليلا، أي أن مساكنهم كانت باقية ولكنها لم تسكن إلا مقدار ما ينزل بها المارة، يوما أو بعض يوم لوقت يكفي للاتعاظ والاعتبار ثم سرعان ما يرحل. قاله ابن عباس. (١)

مثل نزول جيش غزوة تبوك بحجر ثمود واستقائهم من بئر الناقة وأمرهم بالإسراع عند المرور.

فهو يفيد أن المساكن قد سُكنت من غيرهم سواء أكان المراد مساكن قليلة، على أن الاستثناء يرجع إلى المساكن؛ لأن أكثرها قد دُمرت أو صارت خرابا لا تصلح للسكن، أو الاستثناء من عموم أزمان، أي إلا زمانا قليلاً بمقدار ما ينزل بها المارة، يوما أو بعض يوم، وهذا يفيد الزجر عن السكن في أماكن المعذبين.

قال ابن عاشور: "كناية عن حرمان تلك المساكن من الساكن، وتلك الكناية رمز إلى شدة غضب الله تعالى على أهلها الأولين". (٢)

_ كما جاء الوعد من الله بأن العاقبة الحسنة للرسل وأتباعهم بإسكانهم أرض الكافرين بعد إهلاكهم، وذلك لما بالغ الكفار في السفاهة، وأقسموا على إخراج الرسل من بلادهم أو العودة إلى دينهم، فأقسم الله تعالى على إهلاكهم، قال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾. (٣)

للضرب، أي لم تضرب إلا ضربا قليلا". يراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٠١/١٣).

١) يراجع: معالم التنزيل للبغوي (٢١٦/٦) والكشاف للزمخشري (٤٢٣/٣) ومدارك التنزيل للنسفي (٦٠٥/٢) الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى.

٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٥١/٢٠).

٣) سورة إبراهيم، الآية (١٣، ١٤).

وإسكان الأرض: التمكين منها وتخويلها إياهم، كقوله:﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ... ﴾. [1]

وكذلك الحال عندما أراد فرعون أن يخرج موسى (عليه السلام) ومن آمن معه من بني إسرائيل مِن أرض "مصر" لتخلص له تلك البلاد، قال تعالى:﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [2]

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد؛ اسكنوا أرض مصر التي أراد فرعون أن يستفزكم منها، وجعلها خالصة لكم خالية من عدوكم.[3]

واختار غير واحد أن المراد؛ اسكنوا أرض الشام ومصر. [4]

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [5].

" فالتسكين لا يقتضي أن يسكن الرسول بأرض عدوه، بل يكفي أن يكون له السلطان عليها وأن يسكنها المؤمنون، كما مكن الله لرسوله مكة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها". [6]

وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد؛ أرض الظالمين وديارهم. [7]

---

١) سورة الأحزاب، جزء من الآية (٢٧).
٢) سورة الأسراء، الآية (١٠٣، ١٠٤).
٣) قاله الزمخشري في الكشاف (٦٩٨/٢)، والرازي في مفاتيح الغيب (٤١٦/٢١)
٤) قاله القرطبي. (١٠/ ٣٣٨).
٥) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٣٧).
٦) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٠٧).
٧) يراجع: الزمخشري في تفسيره (٥٤٥/٢)، والرازي في تفسيره (١٩/ ٧٧)، والقرطبي في تفسيره (٣٤٨/٩)، والبيضاوي في تفسيره (٣/ ١٩٥).

وعلى أية حال فالآيات تحكى سنة من سنن الله (عز وجل) من طرد الرسل والصالحين وإخراجهم من ديارهم وأرضهم، كما جاء في إخبار القرآن الكريم عن مشركي مكة وتوعدهم للنبي (ﷺ) قال تعالى﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾[1]

وكذا قالها قوم شعيب (عليه السلام) له ولمن آمن به:﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾. [2]

وكذا قال قوم لوط: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[3]

الثاني: السير على نهجهم في ظلمهم لأنفسهم وغيرهم

فهؤلاء لم يكتفوا بتكاسلهم عن إتباع الحق، بل ناصبوا أهله العداء، وصدوا الناس عن سبيل الله، فضلوا وأضلوا واخترعوا من أنواع المكر ما يزيل الجبال الراسيات.

وهذه حقيقة ملموسة في كل زمان ومكان، فكم من ظالم لم يسكن في مساكن من ظلم قبله، إلا أنه صار على نهجه في ظلمه للناس، ولم يتعظ أو يعتبر بما حدث لمن سبقه.

ويكون قوله تعالى (وَتَبَيَّنَ لَكُمْ): بالإخبار حيث بلغكم كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم.

ويمكن القول: من الظلمة من سكن في مساكن الظالمين لبقائها كما أخبر القرآن الكريم، لكنه لم يعتبر بما حلّ بهم من هلاك وعقوبة، مع مشاهدتهم ومعاينتهم لتلك الآثار الباقية التي سكنوها، وأشار إليه الزمخشري أيضاً فقال:

---

١) سورة الأسراء، الآية (٧٦، ٧٧).
٢) سورة الأعراف، جزء من الآية (٨٨).
٣) سورة النمل، جزء من الآية (٥٦).

" ويجوز أن يكون: سكنوا من السكون، أي قروا فيها واطمأنوا طيبي النفوس، سائرين سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، لا يحدّثونها بما لقي الأولون من أيام الله، وكيف كان عاقبة ظلمهم، فيعتبروا ويرتدعوا". [1]

ومنهم من لم يسكن بيوتهم أو يرها، لكنه صار على دربهم في الظلم والطغيان.

والعبرة في كل؛ الاتعاظ والاعتبار بما حدث للسابقين، عن طريق المشاهدة أو الإخبار؛ لأنه إذا كان الدمار والهلاك يلحق من دخل ديارهم فما ظنك بمن عمل مثل عملهم.

١) الكشاف للزمخشري (٥٦٥/٢) وعلق عليه أبو حيان بأنه قول مجاهد. البحر المحيط (٤٥٣/٦)
وذكره النسفي في تفسيره (١٧٩/٢) والألوسي في روح المعاني (٢٣٤/٧)

المبحث الثالث

"هلاك المساكن دون أهلها"

مما قص الله علينا في قرآنه الكريم من أخبار مساكن السابقين الهالكين ما جاء في قصة قوم سبأ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾[1]

وسُمِّيت السورة باسمهم؛ لعظم ما في قصتهم ومساكنهم، حيث كُفُوا مؤنة الطعام والشراب، وهما قيام الحياة؛ فأرزاقُهم حاضرة، وأرضهم مخضرَّة، وسماؤهم ممطرة، وثمارهم يانعة، تحيط بمساكنهم الأشجارُ والثمار، فلا يسيرون إلا في خضرة من الأرض، ولا يأكلون من الطعام إلا أطيبه، ولا يشربون من الماء إلا أعذبَه، ويتنفسون من الهواء أنقاه، كما

---

١) سورة سبأ، جزء من الآية (١٥). قوله تعالى: "في مسكنهم " قرأت بِالتَّوْحِيدِ وَالْجمع قرأ الكسائي (في مَسكِنِهِمْ) موحدًا، بكسر الكاف؛ وهي قراءة يحيى والأعمش
فالحجة لمن وحد أَنه جعله اسْم للموضع الَّذِي يسكنون فِيهِ، ويجوز أَن يراد بذلك جميع المساكن؛ أي بلدهم، ويُؤَدِّي الْوَاحِد عَن الْجمع. قَالَ الْكسَائي: هما لغتان: مَسكَن، ومَسْكِن.
وقرأ حفص وحمزة (في مَسْكَنِهِمْ) موحدًا، بفتح الكاف.
وَمن قَرَأَ {مسكَنهم} بِالْفَتْح يشْبه أَن يكون جعل الْمسكن مصدرا وَحذف الْمُضَاف، وَالتَّقْدِير فِي مَوَاضِع سكناهم فَلَمَّا جعل الْمسكن كالسكن أفرد كَمَا تفرد المصادر، وعَلى هَذَا قَوْله {فِي مقْعد صدق} أَي فِي مَوضِع قعُود أَلا ترى أَن لكل وَاحِد من الْمُتَّقِينَ مَوضِع قعُود.
قَالَ نحويو الْبَصْرَة وَالْأَشْبَه فِيهِ الْفَتْح لِأَن اسْم الْمَكَان من فعل يفعل على المفعل بِالْفَتْح وَإِن لم يرد الْمَكَان
وَقَرَأَ الْبَاقُونَ {مساكنهم} على الْجمع وهي قراءة الحسن وأبي جعفر وشيبة ونافع وعاصم وأبي عمرو.
وَالْحجّة لمن جمع؛ وجود مساكن كثيرة لهم وليس بمسكن واحد، فجعل كل مَوضِع مِنْهُمَا مسكناً.
قال أبو جعفر النحاس: «مساكن» في هذا أبين لأنه يجمع اللفظ والمعنى، فمن قَرَأَ "مساكنهم" أَتَى بِاللَّفْظِ وفقا للمعنى؛ لِأَن لكل سَاكن مسكنا فَجمع؛ لأنها مُضَافَة إِلَى جمَاعَة فمساكنهم بعددهم وَيُقَوِّي الْجمع إِجْمَاع الْجَمِيع على قَوْله {فَتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهمْ} سورة القصص، جزء من الآية (٥٨).
يراجع: حجة القراءات (٥٨٦) لابن زجلة، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه (٢٩٣) ومعاني القراءات للأزهري (٢٩١/٢)، وإعراب القرآن للنحاس (٢٣٢/٣) الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت_ الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٨٣/١٤).

أخبرت الآية الكريمة بأنها بلدة طيبة؛ ﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾[1] فكل شيء فيها طيّب، وهذا من أكمل ما يكون للعيش الرغيد، والراحة التامة، حتى ذكر المفسّرون خلو أرضهم وأجوائهم من الهوام والحشرات المؤذية، فكانت مدينتهم على مستوى متقدم جداً بالنسبة لغيرها من مدن ذلك الزمان.

وما كان من عمران إقليمهم، واتّساع قُراهم، واتصالها ببلاد الشام، آيةٌ أخرى على مبلغ ذلك العمران مبلغاً عظيماً، حيث كُفُوا مؤونة السفر ومشقته، ورُفِع عنهم عنَتُ الطريق ولصوصه، فارتاحوا في سفرهم وأَمِنوا، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾[2]

ولم يُطلب منهم مقابل هذه النعم المتتابعة إلا شكره سبحانه بإقامة دينه، وتحقيق توحيده، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك بل قابلوا ذلك كله بالإعراض والاستكبار والغرور؛ حتى بَلَغ مِن كفرهم بنعمة ربّهم عليهم في أسفارهم أنهم قالوا: ﴿ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ﴾.

وبهذا التعدي في الدعاء، مع الإعراض والتحدي، سُلبوا تلك النعم بتخريب البلاد، والشتات على وجوه العباد، فأفقرهم بعد الغنى، وشرَّدهم بعد الاستقرار، وفرَّقهم بعد الاجتماع، ومزَّقهم في الأقطار، وجعل خبرَهم أحاديثَ يتحدَّث الناس بها في مجالسهم، ويحكون ما جرى لهم، قال الله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾.

" وذلك أنهم لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها فتفرقوا في البلاد فمنهم من ذهب إلى الشام، ومنهم من ذهب إلى العراق ... بعد أن كانوا أمة متحدة، يظلها الأمان والاطمئنان، والغنى والجاه ... [3]

---

١) سورة سبأ، جزء من الآية (١٥).
٢) سورة سبأ، الآية (١٨).
٣) انظر/ التفسير الوسيط للقرآن الكريم المؤلف: محمد سيد طنطاوي (٢٨٣/١١) ويراجع: معالم التنزيل للبغوي (٦٧٦/٣)، وزاد المسير لابن الجوزي (٤٩٤/٣).

وأهلك سيلُ العَرِم كلَّ ما صنعت أيديهم كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾[1]

وهذا التعبير القرآني يخبرنا كيف وقعت الواقعة؛ فالبلدة بكاملها غرقت بعد انهيار السد بسبب السيل، حيث تحطمت جميع أقنية الري التي حفروها، وهكذا تحولت الجنان إلى أدغال.

وذلك بسبب كفرهم وطغيانهم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾.

وفي قصتهم ومساكنهم آياتٍ عدة، منها:

_ **قلبِ المِنح إلى مِحن وتبدُّلَ الأحوال؛** ذلك أن الماء نعمة عظيمة، فلا حياة لمن في الأرض إلا به؛ ولذلك يحتجزه الناس بالسدود، لكن الله تعالى حوَّل هذه النعمة العظيمة إلى نِقمة كبيرة، حين فتح عليهم سدَّهم؛ ليغرق بلادهم، ويهلك حرثهم وأنعامهم، ويتلف أشجارهم وثمارهم، فأضحتْ بلادُهم بعد الخضرة مغبرَّةً، وبعد الخصب مقفرةً، وذلك حتى لا يغتر العباد.

_ المتأمل في مطلع السورة الكريمة يجد أن الحق سبحانه قبل ذكر قصة قوم سبأ، ذكر قصة داود وسليمان - عليهما السلام - ويشترك أصحاب القصتين في أن الله - تعالى - قد أنعم عليهما بالخيرات، ورزقهم من الطيبات، حتى شبعوا وأَمِنُوا، ولكن آل داود آمنوا وشكروا، وآل سبأ بطروا وكفروا، فكانت القصتان مثَلين لأمَّتين إحداهما شكورة، والأخرى كفورة، وكانت أمَّة داود الشكورة المرحومة مثلاً للنبي (ﷺ) ومَن آمن معه، وفيها

---

١) سورة سبأ، الآية (١٦).
الخمط: كل نبت قد أخذ طعما من المرارة حتى لا يمكن أكله. قاله المبرد والزجاج.
والأَثْل: نوع من الشجر كثير الشوك.
والسدر: هو ما يعرف بالنبق. أو هو نوع من الثمار التي يقل الانتفاع بها.
والمراد كما جاء عن قتادة: كان شجر القوم من خير الشجر فصيره الله من شر الشجر بأعمالهم.
معالم التنزيل للبغوي (٦٧٧/٣)، الكشاف للزمخشري (٥٧٥/٣)، زاد المسير لابن الجوزي (٤٩٤/٣).

التثبيت لهم والربط على قلوبهم، كما كانت أمَّة سبأ الكفورة المعذَّبة مثلاً لكفار قريش في ظلمهم وعنادهم.

وعلى الجملة، فإن مقصود الآيات الرئيس هو تحذير الناس من الترف الذي لا يتبعه شكر، والتكبر الذي يؤدي إلى هلاك الأمم والأفراد، فكم من أمة كانت ذات صولات وجولات، بيد أنها لما كفرت بأنعم الله أذاقها الله لباس الجوع والخوف، فأصبحت ضعيفة بعد أن كانت قوية، وفقيرة بعد أن كانت غنية، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[1]

فنتيجة لجحودهم وغدرهم أنزل الله عليهم القحط والخوف والفزع.

وهذه السنَّة كما تنطبق على الأمم فإنها أيضاً سارية على مستوى الأفراد.

_ لا ينشغل المسلم بهذه النعم عن مطلوب المنعم؛ ولا يغتر بمسكنه أو بما أوتي من متطلبات حياته، لأنه لا يضمن بقاء هذه النعم، وإن أمن له بقاؤها فلا يضمن حياته، وصدق الله إذ يقول: " وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ "[2]

وهكذا كانت خاتمة المكذبين المعاندين الجهلة بالله وآياته وسننه؛ الدمار لهم ومسكنهم، أو لهم دون المسكن، أو خرابه أمام أعينهم وهكذا، نعوذ بالله من الجهل وما يترتب عليه من عذاب ونكال وشقاء.

---

١) سورة النحل، الآية (١١٢). البلدة هي: "مكة" كانت في أمان من الاعتداء، واطمئنان مِن ضيق العيش، يأتيها رزقها هنيئًا سهلا من كل جهة، فجحدوا ولم يشكروا له، فعاقبهم الله بالجوع، والخوف من سرايا رسول الله (ﷺ) وجيوشه، التي كانت تخيفهم؛ وذلك بسبب كفرهم وصنيعهم الباطل.

٢) سورة العنكبوت، جزء من الآية (٦٤). فالحياة الآخرة هي الخالدة الدائمة.

الفصل الثالث
مساكن الدار الآخرة

الموت حقيقة سيذوقها كل حي مهما عمّر في الدنيا، قال تعالى :﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2] وبالرغم من ذلك نجد من يستجمع قواه في بناء الزائل الفاني، ويقصر في الأمور الدينية، فيهدم بذلك الدائم الباقي، فلا بد أن يُعادل المسلم بين دنياه وآخرته، فيأخذ من الدنيا ما يُعينه على طاعةِ الله، وعلى الفوز في الآخرة، فقد خلق الله الدنيا والآخرة، وخلق الإنسان وابتلاه بينهما، فإنَّ فضل الحياة الدنيا على الآخرة كان من الخاسرين، وإنَّ آثر الحياة الآخرة على الدنيا كان من الفائزين، قال تعالى ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[3] وهذا ما سأتناوله في هذا الفصل بمشيئة الله تعالى.

---

١) سورة الأنبياء، الآية (٣٥).
٢) سورة العنكبوت، الآية (٥٧).
٣) سورة النازعات، الآية (٣٧: ٤١).

المبحث الأول
مساكن المؤمنين وما يتحفهم الله به في الجنة

يُجهد المرء نفسه في دنياه، يكد ويشقى، يَجمع ويدخر، يُوفر ويقترض، من أجل أن يؤمِّن لنفسه مسكنًا، ويبذل في سبيل هذا الهدف الكثير من ماله وصحته وفكره ووقته، تراه يُخطط ويرسم، يُشيِّد ويُصمِّم، من أجل إظهار هذا المسكن على أحسن حال، حتى إذا ما تمَّ بناؤه بدأ بعد ذلك عناؤه! في اختيار أثاثه، ثم بعد هذا كله تراه يتركه لورثته من بعده، بالإضافة إلى أنه مُعرَّضٌ للتشقُّق والتصدُّع ثم الفناء سواء في حياته أو بعد مماته، فيا ليت دنياه لم تشغله عن أخراه.

هذا هو حال منازل الدنيا، بعكس مساكن الصالحين في الآخرة، التي بناها الذي أحسن كل شيء خَلَقَه، وزينها لأحبابه وأهل رضوانه، وبشرهم بالخلود فيها، وذلك في العديد من آياته منها ما جاء في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1]

ووُصِفت بصفات عدة منها؛ أنها باقيةٌ على رونقها وجمالها، فلا تبلى بمرور الزمن، ولا تعتريها العوارض، وهي دائمة ما دامت السماوات والأرض قال تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ...﴾[2] لا يزول عنهم نعيمها.

وقد ورد التعبير عن الجنة بأنها " مساكن" في قوله تعالى ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ .﴾[3]

---

١) سورة البقرة، الآية (٨٢).
٢) سورة الرعد، جزء من الآية (٣٥). أي ثمارها دائمة، وكذلك ظلالها.
٣) سورة التوبة، جزء من الآية (٧٢) وفي سورة الصف، جزء من الآية (١٢) "وإنما خصت المساكن بالذكر هنا؛ لأن في الجهاد مفارقة مساكنهم، فوعدوا على تلك المفارقة المؤقتة بمساكن أبدية، قال تعالى: "قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ

_ فهي حسنة البناء والمنظر، ليست من آجر [1]، أو طين أو أسمنت، وإنما ترابها رائحته المسك والزعفران، وحجارتها من الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت.

مبنية بهذه الجواهر، كما جاء في الحديث الذي سئل فيه رسول الله (ﷺ) عن كيفية بناء الجنة قَالَ: " لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، مِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، حَصْبَاؤُهَا الْيَاقُوتُ وَاللُّؤْلُؤُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ...". [2]

وفي حديث المعراج عن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): " ثم أُدْخِلْتُ الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك."[3]

إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ....﴿١١﴾ " سورة التوبة. التحرير والتنوير لابن عاشور (١٩٥/٢٨).

وفي سورة الصف؛ جاءت في سياق إرشاد المؤمنين للنجاة من النار والفوز بالجنة، عن طريق العقيدة السليمة والجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بهذا تستر عليهم ذنوبهم، ويدخلهم جنات من نعيمها المساكن الطيبة، وهذا قد يتطلب مفارقة مساكن الدنيا فوعدوا بمساكن الآخرة.

١) طين من التراب الأحمر يُعْجَنُ ويوضع في قوالب مستطيلة وَيُشْوَى، يقال: شُيِّدَتْ جدران العمارة بالآجر.

٢) رواه الترمذي في سننه (٦٧٢/٤)، ح (٢٥٢٦)، أبواب صفة الجنة عن رسول الله (ﷺ)، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، وقال: هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي وليس هو عندي بمتصل.

وقد روي هذا الحديث بإسناد آخر عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ). [قال الألباني]: صحيح، والإمام أحمد في مسنده (٤٦٤/١٥)، ح (٩٧٤٤)، مُسْنَدُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

اللَّبِنَةُ: هِيَ مَا يُصْنَع مِنْ الطِّين وَغَيْره لِلْبِنَاءِ قَبْل أَنْ يُحْرَق. والْمِلَاطُ: هو الطين الذي يُطلى به الحائط. والمسك الأذفر أَيْ: الشَّدِيدُ الرِّيحِ.

٣) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٣٥/٤)، ح (٣٣٤٢)، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام، والإمام مسلم في صحيحه (١٤٨/١)، ح (١٦٣)، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله (ﷺ) إلى السماوات، وفرض الصلوات. والجنابذ: هي القباب.

وروى الإمام مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ ابْنَ صَيَّادٍ، سَأَلَ النَّبِيَّ (ﷺ) عَنْ تُرْبَةِ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ: «دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ» (٢٢٤٣/٤)، ح (٢٩٢٨)، كتاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ ذِكْرِ ابْنِ صَيَّادٍ.

وفيها الأنهار المختلفة تجري من تحت أشجارها قال تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ (١)

_ وهذه المساكن لا ضجيج فيها ولا شجار قال تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ (٢)

ينالون فيها ما تطلبه أنفسهم أو يخطر على بالهم، من الفواكه الكثيرة والشراب قال تعالى ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ (٣) وقال سبحانه ﴿لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾(٤)

تطيب فيها النفس، ويطيب فيها العيش، وينشرح لها الصدر، فهي حسنة البناء طيّبة القرار؛ لاحتوائها على كل ما هو طيب ونافع، وليس فيها ما يسيء أو يضايق من خبث المساكن حسية كانت؛ كآثار الطبخ ونحوه، أو معنوية كالحقد والحسد، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة الراحة.

ومن المساكن الموجودة فيها القصور وفيها الخيام وفيها الغرف وفيها البيوت.

قصور الجنة

القصر: المسكن الرفيع والمبنى العظيم الواسع على وجه الأرض؛ وسمّي بذلك؛ لأنه قصر على الداخلين والمستأذنين" سواء كان كبيراً أو صغيراً.

قال العلماء معناه أنها في البياض درمكة، وفي الطيب مسك. والدرمك هو الدقيق الخالص البياض.

١) سورة محمد، جزء من الآية (١٥).
٢) سورة الحجر، الآية (٤٧، ٤٨).
٣) سورة الزخرف، الآية (٧١).
٤) سورة الزخرف، الآية (٧٣).

ولا مقارنة بين قصور الدنيا وقصور الآخرة، فقصور الآخرة لا مثيل لها ولا نظير، أعدّها الله لعباده، فلا تشبه صنعة الإنسان في الدنيا إلا في الاسم، فهي مصنوعة من الأحجار الكريمة، والزبرجد والدّر والياقوت، وهو وصف يأخذ بلباب السّامعين، وقد جاءت الإشارة إليها في قوله ﴿ﷻ﴾: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾﴾[1]؛ أي ويهبك قصورا فخمة شامخة ونادرة.

---

١) سورة الفرقان، الآية (١٠). وجَعْل هذه القصور هل يكون في الدنيا أم الآخرة؟
ذهب بعض المفسرين إلى أنها قصور في الدنيا؛ لأن الحديث عما ذكره الكفار من الكنز والجنة في الدنيا والبيوت المشيّدة، وبه قال مجاهد وهو تأويل الثعلبي وغيره منهم أبي حيان حيث قال: وهو أَبْلَغُ فِي تَبْكِيتِ الْكُفَّارِ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ. يراجع: الكشف والبيان للثعلبي (١٢٤/٧)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، والبحر المحيط لأبي حيان (٨٦/٨).
وهناك من قال: قصور الآخرة، وردوا على القول الأول أنه ورد بعدها قوله تعالى " بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ [الفرقان: ١١] وبه قال ابن عطية ثم قال بعدها والكل محتمل. المحرر الوجيز (٢٠١/٤).
واعترض على ذلك أبو حيان حيث قال: " وَلَا يَرُدُّهُ لِأَنَّ الْمَعْنَى بِهِ مُتَمَكِّنٌ وَهُوَ عَطْفٌ عَلَى مَا حُكِيَ عَنْهُمْ يَقُولُ: بَلْ أَتَى بِأَعْجَبَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَهُوَ تَكْذِيبُهُمْ بِالسَّاعَةِ.
والذي أميل إليه: أن ذلك يرجع إلى قراءة " ويجعل" بالرفع أو بالجزم
فقَرَأَ ابْن كثير وَابْن عَامر وَأَبُو بكر {وَيجْعَل لَك قصورا} بِرَفْع اللَّام على الِابْتِدَاء قطعوه عَمَّا قبله وَالْمعْنَى وسيجعل لَك قصورا أَي سيعطيك الله فِي الْآخِرَة أَكثر مِمَّا قَالُوا؛ وقاله الزجاج.
وَقَرَأَ نَافِع وَأَبُو عَمْرو وَحَمْزَة والكسائي وَحَفْص عَن عَاصِم والكسائي عَن أَبى بكر عَن عَاصِم {وَيجْعَل} جزما عطفوا على مَوضِع {إِن شَاءَ} ويكون المعنى إِنْ شاءَ وَهَبَ لَكَ فِي الدُّنْيَا خَيْراً مِمَّا اقترحوا بأَنْ يَجْعَلَ لَكَ مثل ما وعدك به في الْآخِرَةِ مِنَ الْجَنَّاتِ التي تجرى من تحتها الأنهار، ويجعل لك الْقُصُورِ الشامخة التي لا يصل إلى مثلها أكثرهم مالا وأعزهم نفرا، لكن الله لم يشأ ذلك لأنه أراد أن يكون عطاؤه لك في الدار الباقية الدائمة، لا في الدار الفانية.
يراجع: السبعة في القراءات لابن مجاهد (ص٤٦٢)، وحجة القراءات لابن زنجلة (ص٥٠٨).
قَالَ الْوَاحِدِيُّ: " وَبَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ فَرْقٌ فِي الْمَعْنَى، فَمَنْ جَزَمَ فَالْمَعْنَى إِنْ شَاءَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَحْسُنُ الْوُقُوفُ عَلَى الْأَنْهَارِ، وَمَنْ رَفَعَ حَسُنَ لَهُ الْوُقُوفُ عَلَى الْأَنْهَارِ، وَاسْتَأْنَفَ أَيْ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا فِي الْآخِرَةِ. يراجع: التفسير البسيط للواحدي (١٦/ ٤١٩)، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومفاتيح الغيب للرازي (٤٣٦/٢٤).

وجاءت سنة النبي (ﷺ) تصف جمالها ورونقها المزخرف في العديد من الحديث منها؛

ما رواه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قال: قال رسول الله (ﷺ): " دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَإِذَا أَنَا بِقَصْرٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا القَصْرُ؟ قَالُوا: لِشَابٍّ مِنْ قُرَيْشٍ، فَظَنَنْتُ أَنِّي أَنَا هُوَ، فَقُلْتُ: «وَمَنْ هُوَ؟» فَقَالُوا: عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ". [1]

٢ـ غرف الجنة [2]

أطلق القرآن على بعض مساكن المؤمنين في الجنّة اسم الغرف، ووصفها بأنها عالية ذات طبقات بعضها فوق بعض، تجري مِن تحت أشجارها الأنهار، قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ .. ﴾ [3] لكمال بهجتها ورونقها، وزيادة سعادتهم.

_ ووصفت بذلك؛ " للدلالة على أنها غرف حقيقة لا أشياء مشابهة الغرف، فلا يظن السامع أن غرف المتقين مجاز عن سحابات من الظل أو نحو ذلك لعدم الداعي إلى المجاز هنا. [4]

وهذا ما ذكره صاحب الكشاف فقال: " فإن قلت: ما معنى قوله مبنية؟ قلت: معناه- والله أعلم-: أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسويت تسويتها. "[5]

---

١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٣٩/٩)، ح (٧٠٢٤) كتاب التعبير، باب القصر في المنام، وفي رواية عند الإمام مسلم " دخلت الجنة فرأيت فيها داراً أو قصراً..." (١٨٦٢/٤)، ح (٢٣٩٤)، كتاب فضائل الصحابة (رضي الله عنهم)، باب من فضائل عمر (رضي الله عنه).

٢) الغرف: جمع غرفة بضم الغين وسكون الراء، وتطلق على الحجرة التي تكون مرتفعة عن الأرض ومرتكزة على غيرها.

٣) سورة الزمر، جزء من الآية (٢٠).

٤) التحرير والتنوير لابن عاشور (٣٧٤/٢٣).

٥) الكشاف للزمخشري (١٢١/٤).

وجاءت السنة مبينة لهذا الوصف بأنها كالكواكب تلوح للناظرين من سكان الجنات، فقال (ﷺ): «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم». [1]

وهذه الغرف يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، كما أخبر بذلك رسول الله (ﷺ) حيث قال: «إن في الجنة غرفاً ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها..." [2] فهي كالبلّور في شفافيّتها وجمالها.

وفيها الأمان الدائم والسكينة، قال تعالى: ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [3] من العذاب أو الموت والأسقام والأحزان، بل ومن الحروب والغزو والنهب والسَّلب والدَّمار.

ومع هذا الأمان تتوافد إليهم التهاني والتحية والتسليم من الملائكة قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾ [4] ويعاملون بالتوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [5].

---

١) متفق عليه. رواه الإمام البخاري في صحيحه (١١٩/٤)، ح (٣٢٥٦) كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، والإمام مسلم في صحيحه (٢١٧٧/٤)، ح (٢٨٣١)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء.

٢) رواه الإمام الترمذي في سننه (٣٥٤/٤)، ح (١٩٨٤)، باب ما جاء في قول المعروف، وقال: حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ وَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ أَهْلِ الحَدِيثِ فِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ إِسْحَاقَ هَذَا مِنْ قِبَلِ حِفْظِهِ، وحسنه الألباني. وهي كما قال (ﷺ): «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام».

٣) سورة سبأ، جزء من الآية (٣٧).

٤) سورة الفرقان، الآية (٧٥).

٥) سورة الرعد، الآية (٢٣، ٢٤).

واستحقوا تلك الغرف لامتثالهم لأوامر ربهم واجتنابهم نواهيه، وصبرهم على إقامة دينه، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[1]

٣ ـ خيـام الجنة

إضافة إلى المساكن والقصور والغرف، ذكر القرآن الكريم أن في الجنّة خيام واسعة عظيمة، ذات بهجة وبهاء، تسكنها الحور العين فلا يخرجن منها، ولا يمدنّ أعينهن لغير أزواجهن، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾[2]

وهذه الخيام ليست من وبر الإبل أو صوف الغنم أو جلد البقر كما في الدنيا، وإنما من اللؤلؤ الباهر الثَّمين مفروشة بالبسط الناعمة الملساء، والوسائد الجميلة، وفيها الخدم والغلمان، والأواني الذهبية.

وقد وصف النبي (ﷺ) جمالها ورونقها وسعتها فقال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنُونَ..."[3]

---

١) سورة العنكبوت، الآية (٥٨، ٥٩).

٢) سورة الرحمن، الآية (٧٢). مستورات في خيام الجنّة

ووصفت في موضع آخر باللؤلؤ الْمَصُون ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة الواقعة.

٣) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٤٥/٦)، ح (٤٨٧٩)، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ سورة الرحمن، ورواه الإمام مسلم في صحيحه (٢١٨٢/٤)، ح (٢٨٣٨)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين.

وفي لفظ " طولها في السماء ستون ميلاً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَرَاهُمُ الْآخَرُونَ» [١] وللبخاري وحده لفظ " طولها ثلاثون ميلاً"[٢]

ويمكن أن يقال إن الخيام في الجنة تختلف في صفاتها بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال.

٤- بيوت الجنة

بقي نوع رابع من مساكن الجنة التي أشار إليها القرآن الكريم "البيوت".

وقد جاء ذكره على لسان المرأة الصالحة التقية امرأة فرعون حين سألت ربها وقالت له ﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ...﴾. [٣]

ولم تقل بيتا عندك، وإنما قالت: (عندك بيتاً) على اعتبار أن الذي يشغلها جوار الله وليس السكن.

وبُشرت خديجة (رضي الله عنها) ببيت في الجنة، والذي زفَّ إليها هذه البشارة النبي (ﷺ) فقال:" إن لها في الجنة بيتًا من قَصَب، لا صَخَبَ فيه، ولا نَصَب فيه". [٤]

---

١) والإمام مسلم في صحيحه (٢١٨٢/٤)، ح (٢٨٣٨)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين.

٢) صحيح البخاري (١١٧/٤)، ح (٣٢٤٣)، كتاب بدء الخلق، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الجَنَّةِ وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ

٣) سورة التحريم، جزء من الآية (١١).

٤) عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: " أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ ".

رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٤٤/٩)، ح (٧٤٩٧) كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {يريدون أن يبدلوا كلام الله} [الفتح: ١٥]، والإمام مسلم في صحيحه (١٨٨٧/٤)، ح (٢٤٣٢) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها.

وذلك لأن بيت خديجة (رضي الله عنها) كان أول بيت في الإسلام، وفيه أزاحت عن النبي (ﷺ) النصب والتعب، فكان الجزاء من جنس العمل.

وبيوت الجنة موجودة في مختلف درجات الجنة، لما ثبت في حديث النبي (ﷺ): «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ». (١)

ومما يشيِّد به للمرءُ له بيوتًا في الجنات، إذا خلصت معه النيَّات بناء المساجد في أرض الله، فقد ثبت في الصحيحين أن النبي (ﷺ) قال: "من بنى مسجداً لله تعالى بنى الله له مثله في الجنة". (٢)

وجاء في باب المحافظة على صلاة النافلة: عن أم حبيبة، تقول: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «من صلى اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة، بني له بهن بيت في الجنة». (٣)

وقوله من قصب بفتح القاف والمهملة بعدها موحدة. والمراد به لؤلؤة مجوفة واسعة كالقصر المنيف. والصخب: الصياح والمنازعة برفع الصوت. والنصب: التعب.
قال السهيلي: " لذكر البيت معنى لطيف لأنها؛ كانت ربة بيت قبل المبعث، ثم صارت ربة بيت في الإسلام منفردة به فلم يكن على وجه الأرض في أول يوم بعث النبي (ﷺ) بيت إسلام إلا بيتها، وهي فضيلة ما شاركها فيها أيضا غيرها؛ فلهذا جاء في الحديث بلفظ البيت دون لفظ القصر". انتهى
وقد ذكر ابن حجر (رحمه الله) معنى آخر في ذكر البيت؛ لأن مرجع أهل بيت النبي (ﷺ) إليها لما ثبت في تفسير قوله تعالى " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت" قالت أم سلمة لما نزلت دعا النبي (ﷺ) فاطمة وعليا والحسن والحسين فجللهم بكساء فقال اللهم هؤلاء أهل بيتي". الحديث
فظهر رجوع أهل البيت النبوي إلى خديجة دون غيرها. فتح الباري لابن حجر (١٣٨/٧) الناشر: دار المعرفة – بيروت.
١) رواه أبو داوود في سننه (٢٥٣/٤)، ح (٤٨٠٠) كتاب الأدب، بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ.
٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٩٧/١)، ح (٤٥٠)، كتاب الصلاة، باب من بنى مسجداً، والإمام مسلم في صحيحه (٣٧٨/١)، ح (٥٣٣) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها.
٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٥٠٢/١)، ح (٧٢٨) كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن، وبيان عددهن.

وكذا عند نزول المصيبة والصبر عليها: كمن فُجِعَ بفَقْد الولد، وأصابته الكآبة والكمد، ثم أتبعها بالحمد والاسترجاع، فقد بشر ببيت في الجنة؛ فعن أبي موسى الأشعري، أن رسول الله (ﷺ) قال: " إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة، وسموه بيت الحمد". (١)

هذه المساكن فيها فُرُش بالغة الرقة والنعومة مبطَّنة من غليظ الديباج، قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ ...﴾ (٢) وعلى وسائد ذوات أغطية خضر وفرش حسان فقال: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴿٧٦﴾ ﴾(٣) وهذه الوسائد مصفوفة، الواحدة جنب الأخرى، قالَ تعالىَ: ﴿ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ﴿١٥﴾ ﴾(٤) ويطاف عليهم في الجنة بالطعام في أوانٍ من ذهب، وبالشراب في أكواب من ذهب، وفيها لهم ما تشتهي أنفسهم وتلذ أعينهم، وهم ماكثون فيها أبدًا، قال تعالى ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٥) وأواني أخرى لها بياض الفضة، وصفاء الزجاج: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ ﴿١٥﴾ ﴾ (٦) وفيها الخدم والغلمان،

وقد ورد بيانها في رواية أخرى فعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي (ﷺ) قال: «من ثابر على اثنتي عشرة ركعة بنى الله عز وجل له بيتا في الجنة، أربعا قبل الظهر وركعتين بعد الظهر، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر» رواه الإمام الترمذي في سننه (٢٧٣/٢)، ح (٤١٤) أبواب الصلاة عن رسول الله (ﷺ)، باب ما جاء فيمن صلى في يوم وليلة ثنتي عشرة ركعة من السنة، ما له فيه من الفضل.

١) رواه الإمام الترمذي في سننه (٣٣٢/٣)، ح (١٠٢١) أبواب الجنائز عن رسول الله (ﷺ)، باب فضل المصيبة إذا احتسب. وقال: هذا حديث حسن غريب.

٢) سورة الرحمن، جزء من الآية (٥٤).

٣) سورة الرحمن، الآية (٧٦).

٤) سورة الغاشية، الآية (١٥).

٥) سورة الزخرف، جزء من الآية (٧١).

٦) سورة الإنسان، الآية (١٥).

في غاية النضارة والبهاء قال تعالى ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [١] وقال أيضاً ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ [٢]

ولا يتغوَّطون ولا يتبوَّلون، ولا يمتخَّطون، أمشاطهم الذهب، ورَشْحُهم المِسْك، خَلْقهم على خَلْق رجلٍ واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعًا في السماء، أعمارهم في الثلاثين، عليهم التيجان، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، يُلهمون التسبيح والتحميد كما يُلهمون النَّفَس.

يعرفون بيوتهم في الجنة، قال تعالى ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [٣] أي يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا.

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قال: " والذي نفس محمد بيده، لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا". [٤]

ومهما خطر ببال المؤمن في الدنيا فمساكنه في الجنة غير ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [٥] [٥]

---

١) سورة الإنسان، الآية (١٩).
٢) سورة الواقعة، الآية (١٧).
٣) سورة محمد، الآية (٦).
٤) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٢٨/٣)، ح (٢٤٤٠) كتاب المظالم والغصب، باب قصاص المظالم.
٥) سورة السجدة، جزء من الآية (١٧). والحديث: رواه الإمام البخاري في صحيحه (٤/ ١١٨) ح (٣٢٤٤)، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، والإمام مسلم في صحيحه (٢١٧٤/٤)، ح (٢٨٢٤)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

المبحث الثاني
النار المقر والمقام لأهلها

أعدّ الله (عز وجل) النار مقراً ومقاماً للكافرين ومحتجزاً للعاصين؛ لسجنهم [1] وعذابهم فيها بعد حسابهم؛ حيث يوضع الصراط عليها، فمن تجاوزه كان في رحمة الله وجنته ومن سقط كان في عذابه وسخطه.

فمن عبد مع الله غيره فقد حرَّم الله عليه الجنة، وجعل النار مُستَقَرَّه، وليس له ناصرٌ يُنقذُه منها، قال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ ﴾[2] كما بين سبحانه أنهم إذا أرادوا الخروج منها لما يلاقونه فيها من أهوالها لا يستطيعون سبيلاً، قال تعالى ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾ ﴾[3] وقال تعالى ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾[4]

فعذابهم دائم، لا ينقطع عنهم، ولا يزول، قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾[5] وقال تعالى

---

١) فالنار فيها سجن عجيب، قال عليه الصلاة والسلام في وصفه: «يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ....".
رواه الإمام الترمذي في سننه (٦٥٥/٤) ح (٢٤٩٢) وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ».
وقوله: "أمثالُ"، أي: مِثلُ وفي حَجْمِ، "الذَّرِّ"، أي: النَّملِ الصَّغيرِ، وقيل: الذَّرَّةُ يُرادُ بها ما يُرى مِن هباءٍ وغُبارٍ في شُعاعِ الشَّمسِ الدَّاخِلِ في النَّافذةِ، وقوله: " إلى "سِجْنٍ"، وهو المكانُ المُظلِمُ الضَّيِّقُ المُعَدُّ للحبسِ "في جَهنَّمَ"، أعَدَّه اللهُ تعالى للمُتكبِّرين، "يُسمَّى" هذا السِّجنُ باسمِ "بولَسَ"- وهو مِن (الإبلاسِ)، بمعنى: اليأسِ، ولعلَّ هذا السِّجنَ إنَّما سُمِّي به؛ لأنَّ الدَّاخِلَ فيه يائسٌ مِن الخَلاصِ عمَّا قريبٍ.
٢) سورة المائدة، جزء من الآية (٧٢).
٣) سورة المائدة، الآية (٣٧).
٤) سورة البقرة، جزء من الآية (١٦٧).
٥) سورة البقرة، الآية (١٦١، ١٦٢)

تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾[1]

فنار جهنم هي مصير الذين يحاربون الله ورسوله (ﷺ) فعذابهم دائم فيها، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2] وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٦٥﴾[3]

فهذه الآيات وغيرها تثبت أن الكافرين ماكثون فيها لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها.

أما عصاة المؤمنين، الذين لم يشركوا بالله شيئاً، ولكنهم ارتكبوا المعاصي والكبائر فهم تحت مشيئة الرحمن، إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم، وإن عُذِّبوا لا يخلّدون في النار كباقي المشركين؛ ولكنهم يمكثون فيها بقدر معاصيهم، ثم يأمر الله تعالى الملائكة بإخراجهم منها وإدخالهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[4] أي من مات على ما دون الشرك من المعاصي فهو تحت مشيئة الله، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ...﴾[5] رُوي عن ابن عباس، وبعض السلف كالحسن والضحاك وقتادة: أن الِاسْتِثْنَاءَ عَائِدٌ عَلَى العُصاة من أهل التوحيد، مِمَّنْ يُخْرِجُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ الشافعين.[6]

والأخبار الصحيحة الواردة عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ تبين ذلك وتوضحه منها:

---

١) سورة النساء، الآية (١٦٨، ١٦٩).
٢) سورة التوبة، الآية (٦٣).
٣) سورة الأحزاب، الآية (٦٤، ٦٥).
٤) سورة النساء، جزء من الآية (٤٨).
٥) سورة الأنعام، جزء من الآية (١٢٨).
٦) يراجع: تفسير ابن كثير (٣٥١/٤).

ما جاء في حديث الشفاعة وقول رب العزة سبحانه وتعالى: "وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ". (١)

وعن أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: " إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امتحشوا وعادوا حمما، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل - أو قال: حمية السيل - " وقال النبي ﷺ: «ألم تروا أنها تنبت صفراء ملتوية». (٢)

والأحاديث في هذا الباب كثيرة يطول المقام لذكرها هنا، فهم لا يخلّدون في النار كباقي المشركين، وهي عقيدة أهل السنة والجماعة.

ولم يأت تعبير السكن مرتبطاً مع أهل النار كما جاء مع أهل الجنة؛ فليست فيها سكينة أو راحة جسدية أو معنوية، وإنما هي مثواهم ومأواهم كما ورد عنها في القرآن الكريم.

المأوى في اللغة (٣): مأوى: مفعل عن أوى يأوي، والمأوى: اسم للمكان الذي لجأ إليه أو نزل فيه، واستقر به يقال: أَوَيْتُ إلى مَنْزلي تَأْوِيَةً،

---

١) رواه البخاري في صحيحه (١٤٦/٩)، ح (٧٥١٠)، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم.

٢) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١١٥/٨)، ح (٦٥٦٠)، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، والإمام مسلم في صحيحه (١/ ١٧٢)، ح (٣٠٤)، كتاب الإيمان، باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار.
وقوله: (حممًا): أي فحمًا. وقوله: (امتشحوا) وهو احتراق الجلد وظهور العظم. وقوله (حميل السيل) ما يحمله ويجئ به السيل من طين ونحوه فإنه إذا جاءت فيه حبة واستقرت على شط مجرى السيل نبتت في يوم وليلة فشبه بها سرعة عود أبدانهم وأجسامهم إليهم بعد إحراق النار لها.

٣) يراجع: كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (٤٣٨/٨)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، ولسان العرب لابن منظور (٥١/١٤) وتاج العروس لمرتضى الزَّبيدي (١١٥/٣٧).

وانْتَوَيْتُ إليه: أي نَزَلْتُهُ بِنَفْسِي وسَكَنْتُه. ومنه قوله عز وجل: ﴿ **إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ ...**﴾ [1] أي لجأوا إلى الكهف.

ومن ذلك؛ قول ابن النبي نوح (عليه السلام) ﴿ **قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ** ﴾[2]، أي سألجأ إلى جبل أتحصَّن به من الماء.

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ في الصحاح [3]: المَأْوَى: كُلُّ مَكَانٍ يأْوي إليه شَيْءٌ لَيْلًا أَو نَهَارًا.

والمَأْوَى: المنزلُ، والمكانُ، ومنه مأوى مؤقّت: تسهيلات مؤقّتة لإسكان المواطنين في ظروف خاصَّة كضحايا الزلازل والفيضانات وضحايا الكوارث والحروب، يقال أَقَامَ بَيْتاً لإِيوَاءِ الْفُقَرَاءِ؛ أي لإِسْكَانِهِمْ.

قال الراغب: " المأوى مصدر، أوى يأوي أويا ومأوى، تقول: أوى إلى كذا: انضم إليه". [4]

ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ...**﴾ [5] أي ضم يوسف إليه شقيقه.

وقال تعالى: ﴿ **تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ...**﴾ [6] أي تؤخر مَن تشاء مِن نسائك في القَسْم في المبيت، وتضم إليك مَن تشاء منهن.

النار مأواهم:

الإنسان في الآخرة يدخل عالم الخلود سواء أكان من أهل الجنّة أم من أهل النار، ومن هنا جاءت كلمة المأوى لتصوّر المكان الذي يصير إليه كل فريق، ومن هنا استعملت كلمة «المأوى» مع الفريقين:

---

١) سورة الكهف، جزء من الآية (١٠).
٢) سورة هود، جزء من الآية (٤٣).
٣) تاج اللغة (٢٢٧٤/٦) الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة.
٤) المفردات في غريب القرآن صـ (١٠٣).
٥) سورة يوسف، جزء من الآية (٦٩).
٦) سورة الأحزاب، جزء من الآية (٥١).

مع أهل النار: فمن أشرك بالله وعبد معه غيره كانت النار مُستَقَرَّهُ، قال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ ﴾[1] وليس له ناصرٌ يُنقذُه منها، أو يمنعه من دخولَها قال تعالى ﴿ وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾.[2]

كما أنهم لا يجدون معدلا أو ملجأً غيرها قال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴾[3] وهذه النار كلما سكن لهيبها، زادهم الله نارًا ملتهبة متأججة، قال تعالى ﴿ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ﴾[4] فهي مقرُّهم ومكانهم الذي يأوون إليه في الآخرة؛ جزاء بما كانوا يكسبون في دنياهم من الخطايا والآثام، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾[5]

وبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم نتيجة أعمالهم السيئة، قال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾[6]

وبئس النهاية والمقر لهذا الإنسان الذي غضب الله عليه، قال تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾[7] وقال سبحانه ﴿ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾[8]، وقال عز وجل ﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾[9] فما أقبحه من مرجع ومصير، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾.[10]

---

١) سورة المائدة، جزء من الآية (٧٢).
٢) سورة العنكبوت، جزء من الآية (٢٥). وفي سورة الجاثية، جزء من الآية (٣٤).
٣) سورة النساء، جزء من الآية (١٢١).
٤) سورة الإسراء، جزء من الآية (٩٧).
٥) سورة يونس، جزء من الآية (٨).
٦) سورة الرعد، جزء من الآية (١٨).
٧) سورة آل عمران، الآية (١٦٢).
٨) سورة الأنفال، جزء من الآية (١٦).
٩) سورة النور، جزء من الآية (٥٧).
١٠) سورة النازعات، الآية (٣٩).

والدنيا متاعها بالنسبة إلى الآخرة قليل، والكافر مَهْمَا أُوتي فيها من متاع فمصيره يوم القيامة إلى هذا المقر، قال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[2]

وهذا ما خاطب به نبيه محمد (ﷺ) بأن مقام الكافرين والمنافقين الذي يصيرون إليه في الآخرة جهنم، قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3]

وهي النتيجة الحتمية لمن خرج عن أمر الله وفضل الحياة الدنيا على الآخرة قال تعالى: " فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ " أي فإن النار مصيره ومستقره.

كما وردت كلمة " المأوى" مع أهل الجنة: قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[4]، أي فلهم الجنة التي يسكنون فيها ويأوون إليها، ويقيمون في نعيمها، وقال تعالى ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾[5]

---

١) سورة آل عمران، الآية (١٩٧).
٢) سورة النساء، جزء من الآية (٩٧).
٣) سورة التوبة، الآية (٧٣). ومن الملفت للنظر أن الحديث في الآية التي قبلها كان عن عن مساكن المؤمنين في الجنة. وجاءت في سورة التحريم، الآية (٩).
٤) سورة النازعات، الآية (٤٠، ٤١).
٥) سورة النجم، الآية (١٥).
روي عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: جنة المأوى: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة.
وعن مقاتل والكلبي: هي الجنة تأوي إليها أرواح الشهداء. وكذا رُوى عن كعب.
وعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) قالت: هي جنة من الجنان.
والصحيح: أنه اسم من أسماء الجنة؛ قاله ابن القيم. يراجع: تفسير القرآن الكريم لابن القيم (ص٤٩٨)

وقال سبحانه: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[1]

فالجنة تضم أصحابها، والنار تضم أصحابها، لكن شتان بين هذا وذاك، بين احتضان الجنة للمؤمنين واحتضان النار للكافرين.

المثوى في اللغة:[2]

الثاء والواو والياء كلمة واحدة صحيحة تدل على الإقامة، يقال: ثَوَى يَثْوِي ثَواءً، إذا أطال الإقامة، وثَوَى بالمكان: نزل فيه مع الاستقرار ومنه قوله: ﴿ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ ﴾[3] أي اجعلي منزله ومُقامه عندنا كريمًا، وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾[4] أي أحسن منزلتي وأكرمني في طول مُقامي، وقال تعالى ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾[5] أي يعلم أحوالكم في حال انتقالكم وفي حال إقامتكم.

قَالَ اللَّيْثُ: الثَّواءُ: طُولُ المُقام. وبه سُمِّي المنزل أو المكان الذي يثوي فيه الإنسان مَثْوىً.

ويقال للغريب إذا لَزِمَ بَلْدَةً وأطال الإقامة فيها هُوَ ثَاوِيها، ومنه قوله ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ﴾[6] أي وما كنت مقيمًا في أهل مدين.

النار مثواهم: مما سبق يتبين لنا أن كلمة «مثوى»؛ معناها موضع الإقامة والمستقَرّ؛ وقد جاءت مرتبطة بمصير **الكافرين** في أكثر من موضع:

---

١) سورة السجدة، الآية (١٩).
٢) يراجع: العين للفراهيدي (٨/ ٢٥٢)، وتهذيب اللغة لأبي منصور الهروي (١٥/ ١٢١) ومقاييس اللغة لابن فارس (٣٩٣/١)، ولسان العرب لابن منظور (١٢٥/١٤)، وتاج العروس لمرتضى الزبيدي (٣٠٦/٣٧).
٣) سورة يوسف، جزء من الآية (٢١).
٤) سورة يوسف، جزء من الآية (٢٣).
٥) سورة محمد، الآية (١٩).
٦) سورة القصص، جزء من الآية (٤٥).

منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾[2] فهي مقام دائم لمن كفر بالله، وجحد توحيده وكذّب رسوله محمدًا ﷺ، قال تعالى

وذلك لأنهم كانوا في الدنيا لا همّ لهم إلا التمتع بشهواتها؛ كمثل الأنعام قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾[3]

فهم إن صبروا على العذاب فالنار مأواهم، وإن سألوا الرجوع إلى الدنيا؛ ليستأنفوا العمل الصالح لا يُجابوا إلى ذلك، ولا تُقبل لهم أعذار، قال تعالى: ﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[4]

فهي مكان إقامتهم وخلودهم إلا مَن شاء الله عدم خلوده فيها من عصاة الموحدين قال تعالى ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ...﴾[5]

وجاءت مع **المتكبرين** في مواضع عدة منها؛ ما جاء في قوله تعالى:﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[6]، وقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾[7]، وقوله عز وجل ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾[8]،

---

١) سورة العنكبوت، الآية (٦٨)
٢) سورة الزمر، الآية (٣٢).
٣) سورة محمد، جزء من الآية (١٢).
٤) سورة فصلت، الآية (٢٤).
٥) سورة الأنعام، جزء من الآية (١٢٨).
٦) سورة النحل، الآية (٢٩).
٧) سورة الزمر، الآية (٦٠).
٨) سورة الزمر، الآية (٧٢).

وقوله سبحانه ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾[1] أي فبئس المكان والمقر المعد للمتكبرين في الدنيا على الإيمان بالله وحده والعمل بشرعه.

وجاءت مع الظالمين في موضع واحد، قال تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[2]

فالنار مقرهم ومصيرهم والمكان الذي يأوون إليه؛ بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود ومعاندة الحق ومقاومة أهله.

كلمة " المثوى " في حق أهل الجنة:

من زعم أنه لا يوجد نص على أن الجنة مثوى للمؤمنين بلفظ صريح، فهذا كلام غير صحيح فقد ورد في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا ...﴾[3]

قرأ حمزة والكسائي [4] ﴿لَنُثْوِيَنَّهُمْ﴾ بثاءٍ مثلثةٍ ساكنةٍ بعد النونِ، وتخفيف وتخفيف الواو وياءٍ مفتوحةٍ بعد الواوِ من الثوى وهو من ثويت بالمكان، يعني: أقمت به.

قال الزجاج: يقال ثوى الرجل بالمكان إذا أقام به، وَأَثْوَيْتُه أنا، إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه. [5]

ويكون معنى لنثوينهم لنعطينهم منازل يثوون فيها.

---

١) سورة غافر، الآية (٧٦).
٢) سورة آل عمران، جزء من الآية (١٥١).
٣) سورة العنكبوت، جزء من الآية (٥٨).
٤) يراجع: السبعة في القراءات (ص٥٠٢)، ومعاني القراءات للأزهري (٢/ ٢٦١)، والحجة في القراءات السبع (ص٢٨١)، والحجة للقراء السبعة (٥/ ٤٣٨)، وحجة القراءات (ص٥٥٤).
٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٤/ ١٧٣).

وقرأ الباقون ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ بباءٍ مُوَحَّدة مفتوحةٍ بعد النونِ وهمزةٍ مفتوحةٍ بعد الواوِ من التبوء وهو الإقامة تَقول الْعَرَب بوأت فلَانا منزلا أَي أنزلته، يقال: بَوَّأ فلان امرأته منزلا إذا أسكنها إياه.

والمراد: لننزلنهم من الجنة غرفا، ودليله قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ ...﴾ [1] أَي استوطنوا المدينة، وقال: ﴿ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٍ..﴾ [2] أي أنزلنا بني إسرائيل منزلا صالحًا مختارًا فَي بلاد "الشام" و"مصرَ".

وقال عز وجل على لسان أهل الجنة ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ ﴾[3] أي أورثَنا الجنة نَنْزِل منها في أيِّ مكان.

فالقراءتان متحدتان في المعنى، هذا من «أَثْوَيْتُ»، وهذا من «بَوَّأتُ».

وهو قول أكثر أهل العلم؛ كالفراء حيث قال: كلاهما واحد، يقال بوْأته مَنْزِلاً وأثويته منزلاً. [4] والمعنى: لنسكننهم مسكنا صالحاً. وقال ابن خالويه: معناهما قريب. [5]

وهو ما ذهب إليه الإمام الطبري فقال: "والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان مشهورتان في قرّاء الأمصار، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القرّاء، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، وذلك أن قوله: (لَنُبَوِّئَنَّهُم) من بوأته منزلا أي أنزلته، وكذلك لنثوينهم، إنما هو من أثويته مسكنا، إذا أنزلته منزلا من الثواء، وهو المقام. [6]

---

١) سورة الحشر، جزء من الآية (٩).
٢) سورة يونس، جزء من الآية (٩٣).
٣) سورة الزمر، جزء من الآية (٧٤).
٤) كتاب فيه لغات القرآن للفراء (ص١١٥)، عام النشر: ١٤٣٥هـ، عدد الصفحات: ١٦٣.
٥) «الحجة في القراءات السبع» (ص٢٨١).
٦) جامع البيان للطبري (٢٠/ ٥٧).

وبهذا يتضح أن كلمة (مأوى) وردت وصفاً لأهل الجنة ووصفا لأهل النار.

وقد جُمِع بين الوصفين (المثوى، المأوى) للكافرين في قوله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾[1]

القرآن الكريم والمعاجم العربية؛ أثبتتا أن (المأوى والمثوى) كلمتان تدلّان على مكان اللجوء ومكان الإقامة أو المقر، دون ارتباط بجنة أو نار.

وعلى كل فهي دار العذاب، ذم الحق سبحانه مقامها، قال تعالى ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾[2] هي ساء ما يؤوى إليها، وساء ما يعاش فيها.

وهي الخِزي الأكبر الذي لا خزي فوقه ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾[3] والخسران العظيم ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾[4] عافانا الله من ناره وتغمدنا في مساكن جناته برحمته.

---

١) سورة آل عمران، جزء من الآية (١٥١).
أي سنقذف في قلوب الذين كفروا الفزع والخوف بسبب إشراكهم بالله، فحالتهم في الدنيا: الرعب من المؤمنين، أما مكانهم في الآخرة الذي يأوون إليه فهو النار؛ وساء هذا المقام مقامًا لهم.
٢) سورة الفرقان، الآية (٦٦). أي ساءت منزلاً ومكاناً يقام فيه.
٣) سورة آل عمران، الآية (١٩٢).
٤) سورة الزمر، جزء من الآية (١٥).

الفصل الرابع
سكن الحشرات

تمثل الحشرات جانباً عظيماً من الموجودات الحية في العالم، وهي تجلب اهتمام الكثيرين لتراكيبها المختلفة، وأشكالها المتنوعة وتبايناتها الكثيرة وعجائبها العظيمة، ودراسة أي منها تُعرف الإنسان على القدرة اللامتناهية لخالقها.

وتتجلى أهمية هذه المسألة عندما نرى كل دابة من الدواب، وكل حشرة من الحشرات يسر الله لها بيتاً يناسبها، وسخر لها المادة المناسبة لعمل بيتها الذي يحميها من عوامل الطبيعة القاسية، وأوحى لها صناعة بيتها من هذه المادة، أو هيأها لذلك؛ كما هيأ الإنسان أن يبني بيته بمواد مختلفة، فتارة من جلود الأنعام، وتارة من الخرسانة والحديد وربما من الخشب وغيره، لأن الله أعطاه العقل وسخر له كل شيء.

وهكذا جميع ما خلق الله تعالى يُسِّر له أمره، وسُهّل له سبيله لتستمر الحياة، فالعديد من الدواب أو الحشرات تبني بيتها بإحكام عجيب، ليكون ملاذاً لها ولأبنائها.

وفي هذا الفصل أتناول بمشيئة الله تعالى سكن الحيوانات وأخص (الحشرات) التي جاء ذكر بيوتها في القرآن الكريم.

المبحث الأول

بيوت النحل [1]

أشار القرآن الكريم إلى مساكن النحل المختلفة في قوله تعالى:﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [2]

هاتان الآيتان ذكرت لنا موضوعات متعددة، كل منها يحتاج صفحات تكتب فيه تفاصيله منها:

١ ـ اتخاذ البيوت حسب الظروف والبيئة.

٢ ـ اختيار الغذاء المناسب.

٣ ـ الاهتداء إلى الطرق الموصلة إلى الغذاء.

٤ ـ ما يخرج منها من الشهد المختلف الألوان لاختلاف الغذاء.

٥ ـ فوائد الشهد الخارج منها.

وسوف أتحدث بعون من الله وتوفيق عن العنصر الأول فقط وأترك الباقية لبعدها عن الموضوع.

اتخاذ البيوت حسب الظروف والبيئة.

في الآية الأولى جاء الحديث عن أماكن بيوت النحل التي يعيش فيها:

أولها: الجبال

ألهمها ربها وأرشدها أن تتخذ من بعض الجبال بيوتاً تعيش داخل كهوفها، ومغاراتها.

ثانيها: الأشجار

---

١) وتسمى بالخلايا التي يأوي إليها النحل ويَقطُنُ فِيها، ويضع العسل.
٢) سورة النحل، الآية (٦٨، ٦٩).

وألهمها أن تتخذ من فروع الأشجار وبين أغصانها، ومن تجاويفها بيوتاً.

ثالثها: أبنية الإنسان

قال تعالى: "**وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** "؛ أَيْ يَبْنُونَ وَيَسْقُفُونَ لها من بيوت تأوي إليها وتلقي فيها العسل.

العرش في كلام العرب [1] يرد به معاني متعددة منها: البيت والمنزل، لذا يقال: عرش الشيء يعرشه- بكسر الراء وضمها- إذا بُنى ورُفع عن الأرض.

والْعَرَب تسمِّي المَظَالَّ الَّتِي تُسوَّى من جريد النَّخل ويُطرَح فوقَها الثُّمامُ عُروشاً.

وتُطلق على أبنية الإنسان عروشاً؛ كما في قوله تعالى:﴿ **وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ** ﴿١٣٧﴾ ﴾[2] أي وما كانوا يبنون من الأبنية والقصور وغير ذلك.

ومنه حديث عمر (رضي الله عنه):" كَانَ يقطع التلبيةَ إذا نظرَ إِلَى عروش مكّة". [3]

كما تطلق على ما يصنع للحيوان عريشاً، كالتي تسوَّى للماشية لتُكنُّها من الْبرد.

والذي يصنعه الإنسان للنحل عريشاً، وهي عبارة عن صندوق خشبي ذي أبعاد ثابتة يوضع داخله الإطارات، ومصممة بطريقة يسهل فيها تربية النحل، كما في الآية التي معنا.

---

١) تهذيب اللغة لأبي منصور الهروي (٢٦٣/١: ٢٦٦)، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر (٢٠٥)، ولسان العرب لابن منظور (٣١٤/٦).

٢) سورة الأعراف، جزء من الآية (١٣٧).

٣) صحيح ابن خزيمة (٤/ ٢٠٦)، ح (٢٦٩٧) كتاب المناسك، باب قطع التلبية في الحج عند دخول الحرم إلى الفراغ من السعي بين الصفا والمروة.
ومنه قيل عريش مكة، يعني: خيامها وأبنيتها. وسميت بيوت مكة عروشاً؛ لأنها عيدان تنصب وتظلل.

_ والأرجح أن (من) في قوله (من الجبال) وقوله (من الشجر) وكذا في (مما يعرشون) للتبعيض، لأن النحل تتخذ من بعض الجبال بيوتًا، ومن بعض الشجر، ومن بعض الأماكن المبنية مساكن توافقها وتليق بها، وهذا ما رجحه صاحب الكشاف حيث قال: (فإن قلت ما معنى «من» في قوله:(أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)؟ وهلا قيل في الجبال وفي الشجر؟ قلت: أريد معنى البعضية، وأنها لا تبنى بيوتها في كل جبل، وكل شجر، وكل ما يعرش، ولا في كل مكان منها". [1]

سر هذا الترتيب والتقسيم

بدأ الحق سبحانه ببيوت الجبال ثم ما يكون على الشجر وختمت بما يصنعه الإنسان له لما يلي:

(أ)_ النحل منه الوحشي، وهو الذي يسكن الجبال والكهوف ويأوي إلى الأشجار، ومنه الأهلي وهو الذي يأوي إلى البيوت ويربيه الناس.

(ب)_ أو رُتِبت حسب جودة العسل الذي يجرج منها؛ فأجودها الجبلي، لقطعه مسافات طويلة للرحيق في الذهاب والعودة، ثم ما يكون على الأشجار لكثرة الرحيق وتنوعه، ثم الذي يكون في البيوت.

(ج)_ أو قدم ذكر الجبال؛ على اعتبار أن الأصل في النحل أنه لا صاحب له، ولا يتعهَّده أحد من النَّاس بالغذاء. [2]

(د)_ أو باعتبار أول ما سكن واتخذ من البيوت كان في الجبال ثم انحدر منها إلى الأشجار، ثم إلى الخلايا التي يصنعها على نحو ما نعرفه اليوم.

والكل محتمل لكن أقربها للصواب القول الأخير لوجود دراسة لعالم الأمريكي رصد حياته لدراسة النحل في أطواره وأصنافه وأجناسه وبيئاته، قال: " أول إنتاج للنحل كان في الجبال، وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل

---

١) الكشاف للزمخشري (٦١٨/٢).

٢) " تتَّخذ النحلة لنفسها بيوتاً إذا كانت لا أصحاب لها، فإذا كانت لها أرباب اتِّخذت بيوتها ممَّا تبني لها أربابها وهو قوله: {ومما يعرشون). قاله الواحدي في الوسيط (٧١/٣).

كان في الخلايا التي عثر عليها من الجبال، وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله في الشجر العالي الذي لا يملكه، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البساتين والبيوت والخلايا". [1]

إبداع النحلة في بناء بيتها

من يرى خليَّةَ النحل وما فيها من نظامٍ وتدبير وترتيب وهندسة بيوتٍ، يجد العَجَبَ في هذه القدرة الفائقة، فالخلية مملكة قائمةٌ بذاتها، لها ملكة واحدة وعددٌ كبير من الشغّالين، منهم من يخدم الملكة، ومنهم من يربي الصغار، ومنهم من يحرس الخلية، ومنهم من يصنع العسلَ وهكذا، تنظيم دقيق وتوزيع صارم في الوظائف، وتعاون إلى درجة الفداء.

يقول ابن العربي في هندسة النحل لبيوتها:" ومن عجيب ما خلق الله في (النحل) أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينها فرج إلا الشكل المسدس، فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه قطعة واحدة". [2]

فهو أكثر الأشكال الهندسية دقة من حيث عدم ترك أي مساحات خالية، أو وجود خلل، فهي في غاية الروعة والتنظيم، فتخزن في بعضها العسل، وفي بعضها الآخر الشمع لتربية الصغار.

ويحدثنا ابن القيم (رحمه الله) في كتابه شفاء العليل عن بدائع صنع الله في خلقه، مبيناً هداية الله للنحل في أمور معاشه حيث قال:

" وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملكة وبيتها، فيُبنى لها بيت مربع يشبه السرير والتخت، فتجلس عليها، ويستدير حولها طائفة من النحل تشبه الأمراء، والخدم والخواص لا يفارقنها، ثم يأخذن في بناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك، وتبني بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب إقليدس، حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها؛ فتبارك الذي ألهمها

---

١) يراجع: تفسير الشعراوي (٢٨٢٢/٥).
٢) يراجع: أحكام القرآن لابن العربي ط العلمية (٣/ ١٣٦).

أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين:

إحداهما: ألا تكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً.

والثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض، لا يبقى منها ضائعاً، ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط؛ فهداها - سبحانه - إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرة ولا آلة، ولا مثال يحتذى عليه". (١)

وبتقدم العلم اليوم، تعرف العلماء المعاصرون على الطريقة التي يبني بها النحل بيته، ووقفوا على كثير من عجائب هداية النحل في البناء ومنها:

" خلق الله تعالى للنحلة آلة هندسية رائعة تشبه المنقلة الهندسية توجد في منطقة العنق وهو عبارة عن غشاء مفصلي يربط بين الصدر والبطن، هذا الغشاء يسمح للنحلة أن تُحرك كل من الصدر والبطن بحرية كاملة، عندما تريد النحلة رسم الشكل الهندسي السداسي لأقراص الشمع في الخلية بكل دقة.

- تصنع النحلة حجرات تخزين العسل مائلة ١٣ درجة، وذلك لأن درجة الميل لو كانت أكثر من ذلك فإن العسل سيتجمع أسفل القرص ويكون من الصعب على النحل أن يحصل عليه، ولو كانت درجة الميل أقل من ذلك فإن العسل يمكن أن ينساب خارج الأقراص.

_ ومن عجائب هداية النحل أيضاً؛ أنه يبني جدران البيوت السداسية من الشمع الخالص الذي لا ينفذ منه الهواء، ولكنه عندما يغلق أبواب البيوت التي تحوي يرقات النحل يخلط الشمع بحبوب اللقاح، وبهذا يتسرب الهواء من خلال حبوب اللقاح، فتبقى اليرقات حيّة، ولو لم يهدها ربها إلى ذلك لماتت اليرقات، وزال النحل من فوق ظهر البسيطة". (٢)

---

١) شفاء العليل لابن القيم (٦٧)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.
٢) مقال للدكتور: مصطفي إبراهيم حسن، أستاذ ومدير مركز أبحاث ناقلات الأمراض، كلية العلوم-جامعة الأزهر، موقع: موسوعة الإعجاز في القرآن والسنة، منشور بتاريخ ٢٠١٠/٧/٢١. بتصرف واختصار.

شيء مذهل لا يمكن تفسيره إلا إذا آمنا بوجود نفحة إلهية أودعها خالق الكون في هذه الكائنات الصغيرة استطاعت أن تصل من خلالها إلى هذه القدرة من التفكير والإبداع والقيام بما يلزمها.

والسياق الذي وردت فيه الآيات يؤكد ذلك، حيث وروت في معرض امتنان الله على خلقه بالعديد من النعم الإلهية الكبرى التي تدل على عظيم قدرته وكمال حكمته وعجائب صنعته، حتى يدركوا أن من يصنع هذا هو الذي يستحق العبودية؛ من إنزاله الماء من السماء، لإحياء الأرض بعد موتها، قال سبحانه:﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥ ﴾[1] والنفع بالأنعام وإخراج اللبن منَ بطونها سائغًا للشاربين، قال تعالى:﴿ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ ﴾[2] وكذا النفع بالنبات وتحوله إلى الشراب قال تعالى:﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًا ﴾[3] ثم الحديث عن النفع بالحشرات، وخص منها النحل فقال سبحانه:﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ ﴾ لذا تسمى سورة النحل بسورة النعم، لكثرة ما ورد فيها من النعم التي تفضل بها على خلقه.

اختصاص النحل دون غيرها من الحيوانات بتسمية إلهامها وحيا[4]

الوحي في هذا المقام، لا يتجاوز أن يكون وحي (الإلهام والإرشاد والتعليم)، ولا يقتصر هذا النوع على النحل، بل تفضل الله به على كل حيوان، بإلهامه فعل ما ينفعه وترك ما يضره وتدبير معاشه إلى غير ذلك، لكنه سبحانه اختص النحل بتسمية إلهامها وحيًا، لأنها أُلهمت نظامًا محكمًا دقيقًا، فهي تقوم بأعمال عجيبة يعجز عنها بعض العقلاء من البشر، من وجود ملكة نافذة الحكم فيهم، وبناء بيت بإحكام، ونظافة متناهية، وعيشة

---

١) سورة النحل، الآية (٦٥).
٢) سورة النحل، الآية (٦٦).
٣) سورة النحل، جزء من الآية (٦٧).
٤) أصل (الإيحاء)؛ إلقاء المعنى من الموحِي إلى الموحَى إليه في خفاء، والمعنى اللغوي للوحي يشمل وجوه كثيرة منها لا مجال لذكرها هنا أشار إليها القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن (١٣٣/١٠).

تعاونية، إلى غير ذلك من الأمور العجيبة التي اختصت بها فكانت هذه الأمور أشبه بالوحي.

وهذا ما أشار إليه ابن عاشور في تفسيره حيث قال: "أطلق الوحي هنا على التكوين الخفي الذي أودعه الله في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب بعضه على بعض لا يختلف فيه آحادها تشبيها للإلهام بكلام خفي يتضمن ذلك الترتيب الشبيه بعمل المتعلم بتعليم المعلم، أو المؤتمر بإرشاد الآمر، الذي تلقاه سراً." [1]

_ أو لأنَّها تقدِّم للإنسانِ الشفاء، وكلمة (الشفاء) لم تَرِدْ في القرآنِ إلا في مَوْطِنَيْنِ؛ في موطِن العسل، وموطنِ القرآن، وكأنَّ العسلَ شفاءٌ للأجسامِ، والقرآنَ شفاءٌ للنفوس". [2]

وكلاهما جاء عن طريق الوحي.

ومن هنا يظهر سر ختام الآية بقوله تعالى: (**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**)، أي أن في ذلك المذكور من أمر النحل وإلهامه وتدبيره في بناءً مسكنه، وخروج العسل المصفى من بطونه، ونعمة الشفاء منه آيات دالة على قدرة الله وعظيم خلقه، ومن تدبر اختصاص النحل بتلك الأمور الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر علم قطعاً أنه لا بدّ له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ويحملها عليه.

١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٠٥/١٤)
٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة المؤلف: محمد راتب النابلسي (٢١٨/٢).

المبحث الثاني
سكن النمل

ذُكر النمل في القرآن الكريم صراحة في آية واحدة من سورة النمل ثلاث مرات، مرة بصيغة الإفراد ومرتين بصيغة الجمع قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾.[1] للدلالة على أنها مخلوق متعاون متكاتف، لا تعرف الأنانية أو حب الذات؛ وإنما تضحي بنفسها من أجل الجماعة، يظهر ذلك في سلوكها وإنذارها لقومها إذ شاهدت سيدنا سليمان -عليه السلام- وجنوده من الجن والإنس والطير يقتربون من وادي النمل، فما كان منها إلا أن طلبت من رفاقها أن يدخلوا مساكنهم حتى لا تدوسهم الأقدام.

مسكن النمل:

_ جاء التعبير في القرآن الكريم عن بيوت النمل بلفظ المساكن؛ لأنها دائماً في حالة حركة، والحركة عكسها السكون، فتعبير (المسكن) يوحى بالراحة والطمأنينة والأمان والاستقرار بعد الجد والتعب طوال النهار، وقوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ ﴾ فيه إيجاز بالحذف بليغ؛ لأن أصله: ادخلوا في مساكنكم، فحذف منه (في) تنبيهًا على السرعة في الدخول.

كما أنها سميت بهذا الاسم: "لتنملها، أي كثرة حركتها وقلة قرارها".[2]

_ وجاء التعبير في القرآن الكريم بصيغة الجمع (مساكن)؛ لتوحي بأنها لم تقتصر على فن واحد في عمارة بيوتها، بل هناك أنواع أخرى من البيوت في أماكن مختلفة من البيئة، فهي تبني مساكن فوق الأرض وأخرى تحتها، كما أنها تتخذ من الأشجار العتيقة بيوتاً.

---

١) سورة النمل، الآية (١٨).
٢) النكت والعيون للماوردي (١٩٩/٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦٩/١٣).

وعبر الحق سبحانه بلفظ "مساكنكم"، ولم يقل المساكن؛ للدلالة على أنه لكل طائفة منها مسكنها الخاص الذي تعلم مكانه ولا يدخل عليهم فيه سواهم". (١)

بيت النمل:

أثبت العلماء أن النملة بنّاءة ماهرة وذكية جداً، لها ستة أرجل ورأس كبير قياساً مع حجم جسمها تستخدمها في الحفر والقتال والدفاع والأكل، تبني مسكنها عادة تحت سطح الأرض وإلى عمق يزيد عن خمسة أمتار، حيث تكون درجة الحرارة مناسبة طيلة أيام السنة على هذا العمق.

وتقوم ببناء مسكنها بطريقة دقيقة متشعبة، تشبه جذور الشجر في باطن الأرض، والحكمة من ذلك، تفادي الأماكن الصلبة غير القابلة للحفر عند بناء المسكن، فتنتقل العاملات من موضع إلى آخر حتى يتم الانتهاء من الممر وهكذا، وتتفرع منه غرف جانبيه وممرات متعددة ضيقة تتخللها الشوارع والمعابر والطرق، وتقوم ببناء مئات الغرف والأنفاق، منها حجرة خاصة للملكة، وحجرات لتربية صغار النمل، وحجرات تستخدم كمخازن للطعام، وهو مقسم إلى مجاميع لكل منها واجبها الخاص والمحدد، فمنها من هو مسئول عن الحراسة، ومنها من هو مسئول عن التنظيف، وهكذا، فهذه الأمور وغيرها تدل على حسن هندستها لمسكنها.

وادي النمل:

النمل: مخلوق اجتماعي يعيش في مستعمرات، ويختلف في الحجم واللون، فمنه الصغير الذي لا يكاد يُرى بالعين المجردة، ومنه الكبير، ويكاد يكون منتشراً على عموم الكرة الأرضية، حيث يوجد في السهول والجبال، وتحت الأرض وفي تجاويف الأشجار.

ولا يمكنها العيش بصورة منفردة، فأغلب تحركها وعيشها في مجاميع، أو ما يسمى بالمستعمرات، وتعداد النمل في العش أو المستعمرة قد يصل

١) يراجع: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر (٦٩/١) لابن القيم. بتصرف يسير.

إلى الملايين، وعند تجمع أعداد من المستعمرات تكون مدينة أو وادياً للنمل كما سمّي القرآن الكريم.

ويُسمي بوادي النمل؛ لأن أغلب الموجود فيه هو النمل، هكذا تقول العرب: وادي بني فلان، أي أغلب من بالوادي من بني فلان.

ولكل مستعمرة ملكة واحدة، توجهها وتنظم مصالحها، وتشرف على النمل السارح في الوادي، وتدير الحكم في المملكة، وتقوم بوضع البيض. [١]

ثم هناك صنف الشغالات (العاملات): وهي إناث عقيمة، تقوم بكل أعمال المملكة، بتوزيع دقيق، من جمع الطعام ورعاية الصغار وغيرها من الأعمال كل حسب قدرته، وأغلب النمل من صنف الشغالات وهي الأكثر انتشاراً في العالم، والشغالات كلهن من الإناث.

أما ذكور النمل منها؛ ذكور خصبة فعملها محصور في التزاوج، وهناك نوع آخر من الذكور (الجنود): تعتبر الجناح العسكري للمملكة. [٢]

ولقد عثُر أحد الباحثين على أحد هذه القرى وبها ٢٠٠٠ بيت تقريباً، وقد بُنِيَ معظمها تحت الأرض احتلت تلك البيوت مساحة ٣٠ فدان تقريباً، تلك البيوت تسكنها ملايين النمل. [٣]

ويؤكد علماء الحشرات أن كل مستعمرة من مستعمرات النمل تشتمل على:

(١) باب التهوية.
(٢) مكان الحرس لمنع دخول الغريب.
(٣) أول طبقة لراحة العاملات في الصيف.

---

١) إلا أن ابن القيم (رحمه الله) يقول: " وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائدا يطلب الرزق فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات وكل نملة تجتهد في صلاح العامة". شفاء العليل صـ (٧٠).

٢) وجوه من الإعجاز العلمي في آية النمل، أ. د/ رضا فضيل بكر، أستاذ بكلية العلوم جامعة عين شمس، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٣) ففي جبال بنسلفانيا إحدى الولايات الأمريكية أكتشف أحد العلماء أحد أكبر مدن النمل في العالم، وقد بني معظمها تحت الأرض وتشغل مساحتها ثلاثين فداناً حفرت فيها منازل النمل.

(٤) مخزن ادخار الأقوات.
(٥) مكان تناول الطعام.
(٦) ثكنة الجنود.
(٧) الغرف الملوكية حيث تبيض ملكة النمل.
(٨) مكان تفقيس البيض.
(٩) مكان تربية صغار النمل.
(١٠) مشتى النمل، وفي يمينه جبانة لدفن من يموت.
(١١) مشتى الملكة.

وتتخلل هذه المستعمرات الشوارع والمعابر والطرق، وكل نملة تعرف طريقها إلى بيتها بإحساس غريب. [١]

وهذه الهندسة المعمارية للمملكة معجزة من معجزات الخالق التي وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة تجعل كل ذي عقل من البشر يخر ساجداً للخالق العظيم.

مكان الوادي:

جاءت كثير من الأقوال في ذكر مكان هذا الوادي الذي جاء في سورة النمل، وهي أقوال لا تعتمد على أدلة شرعية، والذي يهمنا أن العبرة بالألفاظ لا بالمكان، كما ذكر ابن كثير في تفسيره حيث قال: " ومن قال من المفسرين أن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره فلا حاصل لها، والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً". [٢]

١) مقال للأستاذ الدكتور/ زغلول النجار على صفحته بتاريخ ٢٠١٩/٤/٢٨م.
٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٨٣/٦).
قال قتادة: إنه بالشام. وقال كعب: إنه بالطائف. يراجع: النكت والعيون للماوردي (١٩٩/٤) ومعالم التنزيل للبغوي (٤٩٥/٣) والكشاف للزمخشري (٣٥٥/٣)، وزاد المسير لابن الجوزي (٣٥٦/٣).

النمل أمة أرضية:

ومن هنا يجب عدم الاستغراب إن قلنا بأن مجتمع النمل ناجح ومنظم ودقيق، فالنمل يبني المدن، ويشقُّ الطرقات، ويحفر الأنفاق، ويخزّن الطعام في مخازن ومستودعات بطريقة متناهية الدقة.

وهي من الأمم التي تسبح الله تعالى، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: " قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ ". (١)

ولا عجب في ذلك فهذه المخلوقات التي خلقها الله وسخرها لنا ما هي ألا أمم أمثالنا لها نظامها وحياتها، وتخطيطها ومعيشتها ولغتها، قال تعالى ﴿ **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾** ﴾ (٢)

١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (٦٢/٤)، ح (٣٠١٩)، كتاب الجهاد والسير، بَابٌ: إِذَا حَرَّقَ المُشْرِكُ المُسْلِمَ هَلْ يُحَرَّقُ، والإمام مسلم في صحيحه (١٧٥٩/٤)، ح (٢٢٤١) كتاب السلام، بَابُ النَّهْيِ عَنْ قَتْلِ النَّمْلِ.
٢) سورة الأنعام، الآية (٣٨).

المبحث الثالث
بيت العنكبوت

جاء في القرآن الكريم الحديث عن بيت العنكبوت على سبيل ضرب المثل، بتشبيه حال من اتخذ معبوداً دون الله بحال العنكبوت عند اتخاذها بيتاً، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۘ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ (١)

بناء البيت

قام بعض العلماء في العصر الحديث بدراسة آلية نسج العنكبوت لبيتها، ووجدوا أن الذي يقوم بعملية البناء وغزل الخيوط هي أنثى العنكبوت، وذلك من خلال مغزل خاص موجود في نهاية بطنها، ولا يوجد مثله عند الذكر، وأن الخيط المستمر الذي يخرج من لعاب العنكبوت سائل، وبعد أن يلامس الهواء يجفّ. (٢)

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ما معنى الوهن في بيت العنكبوت؟ للعلماء في ذلك أقوال:

الأول: في شكل البيت وتصميمه

بيت العنكبوت من الناحية الشكلية، أضعف بيت على الإطلاق؛ مع أنه مكون من مجموعة خيوط غاية في الدقة ومتشابكة مع بعضها البعض لكنها متباعدة، وهذا هو منشأ الضعف، والسبب الرئيس في دمارها؛ فليست مصفوفة صفّا بلا فُرج، فلا تقي من حرارة الشمس أو زمهرير البرد، ولا تحدث ظلاً كافياً من مطر هاطل، أو ريح عاصف، أو من أخطار

١) سورة العنكبوت، جزء من الآية (٤١).
٢) كشف العلم مؤخراً أن أنثى العنكبوت هي التي تنسج البيت وليس الذكر، وهي حقيقة بيولوجية لم تكن معلومة إلى وقت قريب، فهي من تقوم بفرز المادة الحريرية وجدل الخيوط وغزل الشبكة، فهي عملية بناء حقيقية تقوم بها بغرض السكن.
يراجع: آية في القران الكريم تشير إلى حقيقة علمية دقيقة عن بيت العنكبوت، بحث للدكتور زغلول النجار تم نشره في جريدة الأهرام أخذا. من:http://eltwhed.com

المهاجمين، وبهذا فإنّ صلابة المواد الأولية لا تكفي لحماية البناء من السقوط بالكلية.

والمعنى على ذلك:

تشبيه حال بعض الناس الذين اتخذوا من دون الله أولياء، بسؤالهم قضاء حوائجهم عند الملمات والشدائد، فإذا ما نزلت بهم، وجدوا من يبحثون عنده على ذلك هو ذاته عاجزاً عن توفيرها لنفسه، هم في ذلك كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً عجيباً في شكله وكيفية بنائه لكي يحميها ويأويها، لكنه لا ينفعها ولم يُغن عنها شيئاً عند حاجتها إليه، كنزول مطر شديد أو هجوم طير، تتركه وتلجأ إلى ثقبٍ في جذع شجرة، أو تحت حَجر لعلمها يقيناً أنه لا يحميها. (١)

القول الثاني: ضعف الترابط الأسري

قام بعض العلماء في العصر الحديث بإجراء دراسة على خيوط العنكبوت فوجدوها ليست أضعف الخيوط، بل على العكس تماماً، قوية ومتينة وشدّتها تفوق شدّة الفولاذ، ومن خلالها تتمكن العنكبوت من اصطياد فريستها بعد إيقاعها في شراكها. (٢)

---

١) " وبهذا يكون الرابط بين الشرك وبيت العنكبوت رابط قوي؛ فبيت العنكبوت لا يقتصر على كونه مأوى يسكن فيه، بل هو في نفس الوقت مصيدة يقع في بعض حبائلها اللزجة الحشرات الطائرة مثل الذباب وغيرها.. وتكون فريسة يتغذى عليها، كذلك فإن هؤلاء المشركين الذين اتخذوا أنداداً من دون الله تعالى ودعوا الناس إلى عبادة أندادهم إنما يدعونهم إلى مصيدة متقنة يكون في دخولها حتفهم وهلاكهم في الدنيا والآخرة، فالحذر كل الحذر من أصحاب الدعوات الفاسدة، وذلك من خلال الإشارة إلى خيوطهم الخفية التي يصطادون من خلالها ضحاياهم سواء كانت هذه الخيوط هي المال أو الجنس أو المناصب أو غيرها من الخيوط الخفية، التي ما إن تمسك بالضحية لا تتركها حتى تقضي عليها وتهلكها".
يراجع: آية في القران الكريم تشير إلى حقيقة علمية دقيقة عن بيت العنكبوت، بحث للدكتور زغلول النجار تم نشره في جريدة الأهرام أخذا من:http://eltwhed.com

٢) كشف العلم الحديث أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات، وأكثر مرونة من خيط الحرير، فعند مقارنة الفولاذ بقطر خيط العنكبوت، وجدوا أن خيط العنكبوت أمتن من الفولاذ.

وهذه الحقائق المدهشة تدفعنا للتساؤل عن كيفية التوفيق بين وهن البيت المراد في الآية الكريمة وقوة المادة التي بُنى بها؟

وبدراسة طبيعة بيت العنكبوت من الداخل؛ وُجِد أن الذكر بعد أن يقوم بتلقيح الأنثى تقُوم الأنثى بافتراسه وتتغذى على لحمه طيلة فترة الحضانة للبيض في بعض أنواع العناكب، لأنه قد يستطيع الذكر الفرار بجلده في بعض الأحيان، لأنها أكبر حجماً وأكثر شراسة منه، ثم بعد أن يفقس البيض تجد الصغار نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام أو من أجل المكان أو من أجلهما معا، فتتغذى اليرقات على أضعفها، ثم بعد أن يقوى ويشتد عود ما تبقى من الصغار تقوم بأكل أمها؛ لأنها أصبحت أضعف موجود في البيت، ثم يلقح الذكر الأنثى ثم تقوم بأكله وهكذا، وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها دون أدنى رحمة.

أضف إلى ذلك؛ أن هذه الخيوط مشبعة بمادة لزجة صمغية تلتصق بها أية حشرة بمجرد مرورها عليها، فتقوم هذه الخيوط بتكبيل الحشرة حتى تأتي أنثى العنكبوت فتفترسها.

هذا المصير المخيف جعل بعض العلماء يرون أن المقصود الوهن في البيت من الناحية الاجتماعية والأخلاقية لا المادية؛ منهم الطبيب مصطفى محمود". [1]

" وعلى الرغم من دقتها الشديدة فهي أقوى مادة بيولوجية عرفها الإنسان حتى الآن، فإذا قدر جدلا وجود حبل سميك بحجم إصبع الإبهام من خيوط العنكبوت فيُمْكِنه حَمل طائرة بكل سهولة. أي المتانة نسبية. يراجع: بيت العنكبوت، أخذا من:http://vb.dll3.com/148.html

١) حيث قال: "بيت العنكبوت هو أبعد البيوت عن صفة البيت بما يلزم البيت من أمان وسكينة وطمأنينة، فلا تبدأ الأنثى في بناء هذا البيت إلا حينما تصل إلى مرحلة البلوغ والاستعداد للزواج، فتقوم عند ذلك ببناء بيتها والذي يكون عامل جذب قوي للذكر غير القادر على البناء بطبيعة خلقته، وبعد أن تتم مرحلة التزاوج وينتهي الذكر من تلقيح الأنثى، تذهب الأنثى إلى مكان بعيد آمن حيث تضع بيضها وبينما الذكر في بيته يشعر بالأمان، إذا بالأنثى تنقض عليه فتأكله، وهذا الأكل لا بد أن يتم؛ حيث إن أنسجة الذكر مهمة في عملية إنضاج البيض، والأبناء يأكل بعضهم بعضاً، وقد يستطيع الذكر الفرار

وعلى هذه الدراسات يكون المراد بوهن بيت العنكبوت؛ هو **التفكك الداخلي بين أفراد الأسرة العنكبوتية؛** فلا يوجد فيه ما يلزم البيت من أمان وسكينة وطمأنينة، والعلاقات في هذه الأسرة مبنيّة على المصالح والمنافع المادية، فإذا انتفت المصالح، وانتهت المنافع، ساءت العلاقة بعد ذلك، وبهذا يكون بيت العنكبوت أضعف بيت لغياب المودة والرحمة وانعدام أواصر القربى.

كذلك حال الذين اتخذوا أنداداً من دون الله، يلجئون إليهم بغرض تحقيق مغنم دنيوي ثم ما تلبث فتنقلب هذه المصالح إلى عداء فيما بينهم يوم القيامة فيلعن بعضهم بعضاً، كما جاء في قوله سبحانه: "**وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ** (٢٥)".[1]

وحجتهم في ذلك:

١ ـ إن الله قال: "بيت"، ولم يقل: "خيط" أو "نسيج".[2]

بجلده في بعض الأحيان... وتغزل الأنثى العنكبوت بيتها ليكون فخاً وكميناً ومقتلاً لكل حشرة، أي: إنه ليس بيتاً بل مذبحة..."
يراجع: القرآن محاولة لفهم عصري" للطبيب مصطفى محمود (٢٥١-٢٥٢) بتصرف واختصار.

١) سورة العنكبوت الآية (٢٥).

قال تعالى: " وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ...." لكن هذا الحب لا يدوم ففي الآخرة يلقون اللوم على بعضهم من أجل النجاة من عذاب الله يوم القيامة فقال سبحانه " إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ " سورة البقرة، الآية (١٦٥، ١٦٦) وقال سبحانه " كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ..." سورة الأعراف، الآية (٣٨).

٢) وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت فيه دلالة واضحة على إعجاز القرآن وأنه من عند الله، حيث لم يقل القرآن خيط العنكبوت أو نسيج العنكبوت، فلو كان القرآن

٢ ـ كشف العلم الآن بالقياس أن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الصلب ثلاث مرات، فيكون نسيج العنكبوت بالنسبة لاحتياجاته كمسكن وافياً بالغرض وزيادة ويمثل له قلعة أمينة حصينة.

وقد انتقد هذا الكلام من ثلاثة جوانب:[١]

الأول: أنه يُطوّح بجانب القرآن البلاغي الرائع، وهو المبالغة والتشبيه.[٢]

الثاني: اللغة.[٣]

الثالث: المعنى والأسلوب.[٤] وإضافة إلى ما ذُكر أقول:

الكريم من تأليف محمد (ﷺ) لما وجد حَرَجاً أن يقول: "إن أوهن الخيوط لخيط العنكبوت"، فمن كان سيكذبه بحسب معارف ذلك الزمان؟ فسبحان منزل القرآن.

١) يراجع: نقد التفسير العلمي والعددي المعاصر للقرآن الكريم" للدكتور أحمد محمد الفاضل. ص ٢٩-٣٤.

٢) التشبيه في الآية: شبه صورة المشرك الذي يلجأ إلى معبوده (الصنم) بقصد جلب النفع له، أو دفع الضرر عنه، ثم لا يجدي له أي نفعٍ، ولا يدفع عنه أي ضررٍ، بصورة العنكبوت التي عندما تتعرض لخطر داهم، تقفز إلى بيتها أيضاً بقصد دفع الأذى والضرر عن نفسها، لكن بيتها هذا لا يجدي شيئاً.

هذه الصورة البلاغية الرائعة التي يريدها القرآن الكريم تضيعُ إذا حملنا الوهن على أنه داخليٌّ ينتشر بين أفراد الأسرة العنكبوتية.

٣) " فالزعم بأن العنكبوت هنا هي الأنثى خطأٌ ظاهرٌ تأباه اللغة العربية، لأن العنكبوت لا تنعت بأي من الوصفين: الذكورة والأنوثة كالنملة والنحلة، وهو تأنيث لغويٌ لا علاقة له بالتأنيث البيولوجي كما توهم، فالعنكبوت أو النحلة قد تكون ذكراً كما قد تكون أنثى.

٤) الاستدلال بقوله تعالى﴿ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ على أن الذي كانوا لا يعلمونه من قبلُ، هو هذا الذي عرفه العلم الطبيعي اليوم من التفكك الأسري، هو من البعد بمكانٍ، فهذا أسلوبٌ قرآنيٌ شائعٌ معروفٌ، حيث ورد في وصف الله تعالى المنافقين بقوله تعالى:" صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ " سورة البقرة، وغير ذلك من الآيات، وهم على الحقيقة ليسوا صماً ولا بكماً ولا عمياً، لكن لما لم يستفيدوا من حواسهم هذه جعلها بمنزلة المعدومة والمعطلة، وكذلك الشأن في هذه الآية التي بين أيدينا.

_ مخالفته لكلام السلف، إذ غاب عنه أصل كبير من أصول علم التفسير، ألا وهو الرجوع إلى كلام السلف والخلف الذين ذهبوا إلى أن معنى الوهن الضعف وعدم النفع؛ منهم " ابن عباس وقتادة وابن زيد" إذ يستلزم جهلهم قاطبة بحقيقة معنى الآية.

_ ثم ذاك الخلط والخبط الذي حصل له بين "البيت" و "الخيط" على اعتبار أن القرآن الكريم تحدث عن أوهن البيوت ولم يتحدث عن أوهن الخيوط.

_ أصل البيت: مأوى الإنسان بالليل، يقال: بَاتَ؛ أي أقام بالليل، فالباء والياء والتاء أصل واحد، هو المأوى والمآب ومجمع الشمل، ومنه يقال لبيت الشعر ذلك على أنه مجمع الألفاظ والحروف والمعاني، كما أنه قد يقال للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه، لكن البيوت بالمسكن أخصّ". [1]

فهذا هو الأصل الموضوع له في اللغة، وعبارات المفسرين مع اختلافها كلها ترجع إلى هذا الأصل، وعليه يكون صاحب هذا الرأي مطالباً بأن يثبت أن البيت يأتي بمعنى الأسرة في اللغة؛ لأنه أبى تسمية ما يغزل العنكبوت من الخيوط بيتاً، وادعى أن المراد الأسرة! إلا إذا سمى الأسرة بيتاً لكون الإنسان يأوي إليها كتسمية المرأة بيتاً.

الجمع بين الرأيين: يمكن الجمع بينهما من وجوه:

أولاً: الوهن في اللغة؛ يعني الضعف، وهو الصحيح في لغة العرب بدون خلاف، فيمكن أن نطلق على كل شيء فيه ضعف فيه وهن سواء كان في بنائه أو في قوته أو منظره.

يقول الفراهيدي: " الوَهْنُ: الضَّعْفُ في العمل وفي الأشياء، وكذلك في العَظْم ونحوه، وقد وَهَنَ العَظْم يَهِنُ وَهْناً. [2]

١) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني صـ (١٥١).
٢) كتاب العين للفراهيدي (٤/ ٩٢).

ومنه قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا..**﴾[1]

ثانياً: **أصحاب الوجه الأول** :نظروا إلى الوهن الحسي الظاهري من حيث بناؤه ودقة خيوطه التي لا تقي حراً ولا برداً ولا تدفع عن ساكنه عدواً كما قال أهل التأويل قديماً ـ رحمهم الله ـ

وأصحاب الوجه الثاني :نظروا إلى الوهن الخفي المتحقق في العلاقات العدائية القائمة في هذا البيت، ليشمل بعداً آخر وفهماً جديداً ومعرفة، بأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد، فلا أولاد يعيشون في دفء أحضان الأم، ولا أب يدير أمور البيت، كما أنه لا يحمي ساكنه من عاتيات الزمان، تنخر فيه الريح وتمزقه أدنى قطرات المطر، لا يستر من يدخله ولا يدفع من يبغي عليه من خارجه، فنعم الوصف الإلهي له بأنه أوهن البيوت.

ثالثاً لا مانع من الجمع بين الرأيين، فالقرآن الكريم يثرينا بآياته، فهو الثابت المستمر، يجدد بنفحاته عزائمنا، ففي نفس الكلمات والحروف التي نزل بها القرآن نكتشف فيها الكثير مما لم يدركه سلفنا من المفسرين والعلماء، وما ذلك إلا دليل على عظمته وإعجازه، لكي تبقى أمة الإسلام حية، يسوقها إلى طريق الحق، فاللفظة الواحدة من ألفاظ القرآن تحتمل وجوها متعددة من المعاني، فما كان يفهمه المفسرون في زمن ما، تراه صالحاً لمعاني أخرى جديدة يكشف عنها تطور العلوم في زمان آخر دون تعارض بينهما، فما فهمه سلفنا الصالح في معنى " الوهن" لا يتصادم مع الفهم الحديث إلا أن ما توصل إليه العلماء اليوم يعتبر تفسيراً مكملاً لذلك المعنى.[2]

وهذه الأمور كانت خافية على من تقدم من سلفنا وعلمائنا، حيث لم تكتشف إلا بعد دراسات مكثفة في علم سلوك الحيوان، واستغرقت جهود مئات من العلماء لعشرات من السنين.

---

١) سورة مريم، جزء من الآية (٤).
٢) مقال "المعجزة القرآنية في بيت العنكبوت"، موقع إعجاز القرآن الكريم.

ومن العجيب أن الحشرات الثلاث التي ورد ذكر بيوتها في القرآن (النحل، النمل، العنكبوت)، جاءت كل واحدة منها في سورة سُميت بها، وفيه لفت للأنظار إلى قدرة الخالق في تعليم هذه الحشرات صناعة بيتها ومساكنها.

الفصل الخامس

السكن المعنوي

لا يأتي مصطلح السكن في كل آيات القرآن الكريم ويراد به الثبوت والاستيطان، أو اتخاذ مكان للإقامة والمعيشة فحسب، بل قد يأتي بمعان مجازية كما سيتضح بمشيئة الله تعالى من خلال هذا الفصل.

المبحث الأول

الصلاة من النبي (صلى الله عليه وسلم) سكن

ورد في سورة التوبة قصة الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك، وجاء في كتب التفسير أنهم تخلفوا بسبب حبّهم لأموالهم ثم اعترفوا بذنوبهم وندموا وتابوا قال تعالى ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1]

فأتوا بأموالهم إلى رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) وطلبوا منه أن يأخذها ويتصدق بها، فلم يستجب لهم؛ لأنه لم يؤمر بذلك حتى جاءه الأمر من الله بأخذ الصدقات من هؤلاء التائبين قال تعالى﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾[2] فلمّا نزلت هذه الآية أخذ رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- جزءًا من أموالهم، فتصدَّق بها عنهم، وكان ذلك بمثابة تكفير عن ذنبهم.

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى هذا القول منهم الإمام الطبري واستدل على ذلك بما أخرجه في تفسيره بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: لما أطلق رسول الله (ﷺ) أبا لبابة وأصحابه جاءوا بأموالهم إلى رسول الله (ﷺ) فقالوا له يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا، واستغفر لنا، فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا» فأنزل الله تعالى﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ....﴾ الآية.[3]

---

١) سورة التوبة، الآية (١٠٢).
٢) سورة التوبة، الآية (١٠٣).
٣) جامع البيان للطبري (١٤/ ٤٥٤).

وذكر الماوردي في تفسيره أن المراد بالصدقة وجهان:

أحدهما: الصدقة التي بذلوها من أموالهم تطوعاً، قاله ابن زيد.

والثاني: الزكاة التي أوجبها الله تعالى في أموالهم فرضاً، قاله عكرمة.[1]

ويجوز إطلاقها على سائر المؤمنين ويكون المراد بالصدقة الزكاة المفروضة.

الفوائد المترتبة على الصدقة:

من فوائد هذه الصدقة أنها؛ تُطَهِّرُ وَتُزَكِّي

فهي تطهر النفوس من دنس الذنوب كالشح والبخل والطمع والقسوة على الفقراء البائسين.

وتزكى النفوس وترفعها عن منازل المنافقين إلى منازل الْمُخْلِصِينَ.

وقيل: إنها تنمي الأموال والحسنات. [2]

وفي رواية الْوَالِبِيّ عن ابن عباس قال: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا قَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ثُمَّ نَدِمُوا عَلَى ذَلِكَ، وَقَالُوا: نَكُونُ فِي الْكِنِّ وَالظِّلَالِ مَعَ النِّسَاءِ وَرَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابُهُ فِي الْجِهَادِ، وَاللَّهِ لَنُوَثِّقَنَّ أَنْفُسَنَا بِالسَّوَارِي فَلَا نُطْلِقُهَا حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنَا وَيَعْذِرُنَا، وَأَوْثَقُوا أَنْفُسَهُمْ بِسَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَرَّ بِهِمْ فَرَآهُمْ، فَقَالَ: "مَنْ هَؤُلَاءِ؟ " قَالُوا: هَؤُلَاءِ تَخَلَّفُوا عَنْكَ، فَعَاهَدُوا اللَّهَ أَنْ لَا يُطْلِقُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى تَكُونَ أَنْتَ الَّذِي تُطْلِقُهُمْ وَتَرْضَى عَنْهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "وَأَنَا أُقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أُطْلِقُهُمْ وَلَا أَعْذِرُهُمْ حَتَّى أُومَرَ بِإِطلاقهم، رغبوا عني وتخلفوا عَنِ الْغَزْوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، فَلَمَّا نَزَلَتْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَطْلَقَهُمْ وَعَذَرَهُمْ، فَلَمَّا أَطْلَقَهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أَمْوَالُنَا الَّتِي خَلَّفَتْنَا عَنْكَ فَتَصَدَّقْ بِهَا عَنَّا وَطَهِّرْنَا وَاسْتَغْفِرْ لَنَا، فَقَالَ: "مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ} الآية. وقال ابن عباس: كانوا عشرة رهط. يراجع: أسباب النزول للواحدي (ص٢٥٨) الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى.

١) النكت والعيون للماوردي (٢/ ٣٩٨).

٢) معالم التنزيل للبغوي (٤/ ٩١). البحر المحيط (٥/ ٤٩٩).

ومن ثم أوجب الدين على أصحاب الأموال من النفقات والصدقات ما يجعل المال وسيلة للألفة والمحبة لا الكراهية والبُغض والخصام.

وهذا الترتيب فيه حكمة بليغة؛ " فقوله تطهرهم إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات. وقوله: تزكيهم إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات، ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية. فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم". [1]

المراد بالصلاة في الآية:

أصل الصلاة في اللغة؛ الدعاء.

والمراد بصلاة النبي عليهم في الآية؛ الدعاء لهم بأن يدخلهم الله في رحمته، وأن يغفر لهم تلك الذنوب التي تابوا منها، أو بالبركة كأن يقول لهم "أثابكم الله" و "تقبّل الله منكم" و "زادكم الله من فضله"، ونحو ذلك. [2]

ومما يدل على أن صلاة النبي (ﷺ) دعاء ما جاء في قوله تعالى﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ﴾ [3]

فالصلاة من الله رحمة، ومن النبي (ﷺ) الدعاء.

ولذلك كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد نزول هذه الآية يدعو لكل من يأتيه بصدقة امتثالاً لما أمره الله به.

---

١) التحرير والتنوير (١١/ ٢٢).

٢) ذكر الماوردي في تفسيره وجهان: أحدهما: استغفر لهم: قاله ابن عباس. الثاني: ادع لهم، قاله السدي. النكت والعيون للماوردي (٢/ ٣٩٨) وكلاهما بمعنى واحد فالاستغفار لهم دعاء؛ كما في قوله تعالى " ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ..." سورة التوبة، جزء من الآية (٨٠).

٣) سورة التوبة، جزء من الآية (٩٩).
أي ومن الأعراب مَن يؤمن بالله ويقرُّ بوحدانيته وبالبعث، ويحتسب ما ينفق من نفقة لرضا الله ومحبته، ويجعلها وسيلة إلى دعاء الرسول ﷺ له.

لما رواه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: كان النبي (ﷺ) إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ»، فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى». (١)

وقيل: صَلِّ عليهم إذا ماتوا. أقوال. (٢)

المراد بالسكن في الآية:

وَالسَّكَنُ: بِفَتْحَتَيْنِ مَا يُسْكَنُ إِلَيْهِ، أَيْ يُطْمَأَنُّ إِلَيْهِ وَيُرْتَاحُ بِهِ. وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكُونِ بالمعنى المجازي، وهو سكون النفس، أي سلامتها من الخوف ونحوه، لأن الخوف يوجب كثرة الحذر واضطراب الرأي فتكون النفس كأنها غير مستقرة، ولذلك سمي ذلك قلقا لأن القلق كثرة تحرك.(٣)

وذكر الماوردي في معناها تأويلات:

أحدها: طُمَأْنِينَةٌ لَهُمْ، وأَنَّ اللَّهَ قَبِلَ صَدَقَتَهُمْ؛ قَالَهُ: ابْنُ عَبَّاسٍ.

الثاني: رحمة لهم. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس أيضاً.

الثالث: وقار لهم؛ قاله قتادة.

الرابع: تثبت لهم؛ قاله ابن قتيبة.

الخامس: أمن لهم. (٤)

وهي أقوال متقاربة. (٥)

فدعاء النبي لهم بالرحمة والمغفرة وقبول الصدقة، طمأنينة وسكينة لقلوبهم، كما أنه يزيد نفوسهم صلاحاً وسكونًا إلى الصالحات؛ لأن المعصية

---

١) رواه الإمام البخاري في صحيحه، (٢/ ١٢٩)، ح (١٤٩٧)، كتاب الزكاة، باب صلاة الإمام وَدُعَائِهِ لصاحب الصَّدَقَةِ، والإمام مسلم في صحيحه (٢/ ٧٥٦)، ح (١٠٧٨) كتاب الزكاة، باب الدعاء لِمَنْ أَتَى بِصَدَقَتِهِ.
٢) ذكره أبو حيان في البحر المحيط (٥/ ٤٩٩).
٣) التحرير والتنوير (١١/ ٢٣).
٤) النكت والعيون للماوردي (٢/ ٣٩٨). ويراجع: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٧).
٥) البحر المحيط (٥/ ٤٩٩).

تردد واضطراب، قال تعالى:﴿ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[1] والطاعة اطمئنان ويقين، كما قال تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾[2] وبشارة بأنّ الله تعالى قد عفا عنهم وقبل توبتهم.

١) سورة التوبة، جزء من الآية (٤٥).
٢) سورة الرعد، الآية (٢٨).

المبحث الثاني

الليل سكن والنهار معاش

ورد في القرآن الكريم آيات عديدة تفيد أن الليل سكن، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾(١)

وقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾(٢)

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾(٣)

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾(٤)

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾(٥)

واختلف المفسرون في معنى **" الليل سكن"** إلى قولين:

القول الأول: ما يسكن إليه المرء ويطمئن ويأنس؛ من أهل وأحباب وغيره؛ ويكون من السكون: الهدوء عن الاضطراب؛ أي جعل لكم الليل لتحصل فيه راحة النفس من تعب الفكر بهدوء الخواطر والأفكار، ويطمئن فيه القلب بالركون إلى مناجاة مولاه.

---

١) سورة الأنعام، الآية (٩٦).
٢) سورة يونس، الآية (٦٧).
٣) سورة النمل، (٨٦).
٤) سورة غافر، الآية (٦١).
٥) سورة القصص، الآية (٧٢، ٧٣).

وهو ما ذكره صاحب الكشاف فقال: "السكن ما يسكن إليه الرجل وغيره ويطمئن استئناساً به واسترواحاً إليه من زوج أو حبيب، ومنه قيل للنار: سكن لأنه يستأنس بها، ألا تراهم سموها المؤنسة، والليل يطمئن إليه المتعب بالنهار لاستراحته فيه واستجمامه"[١].

القول الثاني: ما يسكن فيه الخلق؛ من عناء الحركة بالنهار في طلب المعاش، فيسكن فيه الناس إلى دورهم ومنامهم؛ لأنهم قد أتعبوا أنفسهم في النهار، فاحتاجوا إلى زمان يستريحون فيه، كما تسكن فيه الأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، لتأخذ نصيباً من الراحة التي تكتمل بالنوم ثم يأتي الضياء، وهكذا أبدًا إلى يوم القيامة.

ويؤيده قول ابن عباس: " إن كل ذي روح يسكن فيه؛ لأنّ الإنسان قد أتعب نفسه فاحتاج إلى زمان يستريح فيه ليسكن فيه عن الحركة". [٢]

وإلى هذا أشار الكلبي فقال: " يسكن فيه الخلق ويرجعون إلى أوطانهم". [٣]

واختاره القاسمي فقال: " وهو الأظهر". [٤]

واختاره الشيخ/ محمد رشيد رضا (رحمه الله) فبعد أن ذكر هذا القول أشار إليه بأنه هو الراجح المختار، ثم قال: "ودليل الترجيح نص (لتسكنوا فيه) وكون المسكون فيه أعم وأظهر من المسكون إليه، فإن كثيرا من الناس يستوحشون من الليل ولا يأنسون به، وإن كان له على آخرين أياد جلية، فيستطيله المرضى والمهمومون والمهجورون، ويستقصره العابدون الواصلون، والعاشقون الموصولون، فذلك يقول ما أطوله ويطلب انجلاءه، وهذا يقول ما أقصره ويتمنى بقاءه". [٥]

---

١) يراجع: الكشاف للزمخشري (٤٩/٢) بتصرف يسير. وذكره البيضاوي في تفسيره (١٧٤/٢) والنسفي تفسيره (٢٢٦/٢) وأبو السعود في تفسيره (١٦٤/٣).
٢) لباب التأويل في معاني التنزيل، المعروف بالخازن (١٣٩/٢).
٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي (٣٠٣/٢).
٤) محاسن التأويل (٤٤٠/٤).
٥) تفسير المنار (٥٢٨/٧).

والليل تحصل فيه راحة الجسم من تعب العمل بالنهار؛ فلا يتيسر فيه من الحركة وأنواع الأعمال ما يتيسر في النهار التي لا تتم إلا بضوء الشمس، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾[1] وأكثر الكائنات الحية من الإنسان والحيوان تترك العمل والسعي في الليل وتأوي إلى مساكنها بالليل للراحة التي لا تتم ولا تكمل إلا بالنوم".[2]

وقد ذكر الإمام الرازي أن السكون في وقت النوم سبب للراحة، من وجهين:

" الأول: الحركات توجب الإعياء من حيث إن الحركة توجب السخونة والجفاف، وذلك يوجب التألم.

الثاني: الليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل في النهار من الحر والجفاف بسبب ما حدث من كثرة الحركات". [3]

<u>الجمع بين الرأيين</u>:

ويجوز الجمع بينهما، فكلمة السكن تطلق على ما سكنت إليه وما سكنت فيه، ويكون المراد بالسكن في الليل ما يعم سكون الجسم وسكون النفس؛ وسكون الجسم فبراحته من تعب العمل بالنهار، وسكون النفس فبهدوء الخواطر والأفكار، فيحصل فيه راحة الجسم والروح معاً (راحة بدنية، ونفسية) فالعمل العقلي يجهد الدماغ، والعضلي يجهد الأعضاء العاملة.

وهذا ما أشار إليه صاحب المنار فقال:" إلا أنه يجوز الجمع بينهما".[4]

---

١) سورة الإسراء، الآية (١٢).
٢) يراجع: تفسير المنار (٥٢٨/٧) وتفسير المراغي (١٩٩/٧) بتصرف، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
٣) مفاتيح الغيب للرازي (٥٢٨/٢٧). وهذا باعتبار الأعم الأغلب.
٤) تفسير المنار (٥٢٩/٧).

وقد صرّح الزمخشري بهذا الرأي فقال: " ويجوز أن يراد: وجعل الليل مسكوناً فيه من قوله لتسكنوا فيه". [١]

واستدل على ذلك بمقابلة المحذوف في قوله تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٢] فهذه الآية فيها اللف والنشر، أي لتسكنوا في الليل فهو للراحة والنوم، وتطلبوا الرزق من فضل الله في النهار فهو للحركة والسعي على المعاش.

وهو ما ذكره صاحب البحر المحيط فقال؛ "إن العلة من خلق الليل هي قوله: لتسكنوا فيه، وحذفها من النهار، وذكر وصف النهار وحذفه من الليل، وكل من المحذوف يدل على مقابله، والتقدير: جعل الليل مظلما لتسكنوا فيه، والنهار مبصرا لتتحركوا فيه في مكاسبكم وما تحتاجون إليه بالحركة". [٣]

ويؤيده قوله -تعالى-: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾[٤]؛ أي جعل لكم الليل ساترًا لكم بظلامه كما يستركم اللباس، فهو يلبس الوجود ويغشاه كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ ﴾[٥] ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ أي راحة لأبدانكم، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة بالنهار، فإذا جاء الليل قلت الحركات وسكنت الأعضاء واستراحت، فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معا.

ويكون ذلك عن طريق النوم بالليل فهي حالة وفاة؛ كما قال سبحانه: (وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ...) [٦] وقال جل وعلا: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [٧] وهذه الوفاة راحة للنفس والجسم التي

١) الكشاف (٤٩/٢). والبيضاوي في تفسيره (١٧٤/٢)
٢) سورة القصص، الآية (٤٣).
٣) البحر المحيط لأبي حيان (٨٥/٦).
٤) سورة الفرقان، الآية (٤٧).
٥) سورة الليل، الآية (١).
٦) سورة الأنعام، الآية (٦٠).
٧) سورة الزمر، الآية (٤٢).

بدونها يصاب الإنسان بالإرهاق والتعب الذي لا يُطَاقُ، ويتضح ذلك الإرهاق جلياً إذا بقي الإنسان دون نوم لفترة طويلة، وصدق الله إذ يقول: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩) [١]

فالنوم من النعم الكبيرة؛ لأنه يقطع الإنسان عن حركة الحياة فسماه السبات، لأن السبت هو القطع.

وهناك من تضطره الظروف أو طبيعة عمله فيكون نومه بالنهار وعمله بالليل كالدراسة أو الحراسة وغيرهما، فهو يعمل بالليل لكنه يرتاح في النهار، وإليه أشار المولى تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣﴾ [٢]

" فالسكون وإن كان في النهار ممكناً وابتغاء فضل الله بالليل ممكنًا، إلا أن الأليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به". [٣]

أمّا قوله تعالى: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣﴾ [٤]

فيجوز أن تكون من السكنى أي الاستيطان، أي ما حلّ واستقرّ، أو تكون من السكون الذي هو ضد الحركة؛ أي سكن أو تحرك في الليل والنهار؛ ذلك أن كل متحرك يؤول إلى ساكن، وكل مكان في الأرض يأتي عليه الليل والنهار.

---

١) سورة النبأ، الآية (٩).
يقول ابن عاشور في التحرير والتنوير ج٣. ص١٩ عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ النبأ: (٩): (وفي هذا امتنان على الناس بخلق نظام النوم فيهم، لتحصل لهم راحة من أتعاب العمل الذي يكدحون له في نهارهم، فالله تعالى جعل النوم حاصلا للإنسان بدون اختياره. فالنوم يلجئ الإنسان إلى قطع العمل لتحصل راحة لمجموعه العصبي الذي ركنه في الدماغ، فبتلك الراحة يستجد العصب قواه التي أوهنها عمل الحواس وحركات الأعضاء وأعمالها.
٢) سورة الروم، الآية (٢٣).
٣) مفاتيح الغيب للرازي (١٣/٢٥).
٤) سورة الأنعام، الآية (١٣).

والمعنى أن الله يملك كل المخلوقات التي حل عليها الليل أو النهار، وكل متحرك أو ساكن في هذه الحياة، خفي أو ظاهر، الجميع عبيده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره.

وعلى هذا فالليل مادة مخلوقة ومسخرة للراحة (البدنية والنفسية)، وخُلِق النهار لطلب المعايش وتدبير أمور الحياة، وجعل الشمس آية للنهار، والقمر آية للَّيل، ولكل منهما مدار يجري فيه وَيَسْبَح لا يحيد عنه، قال تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1]

وقال سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾[2]

أي جعلهما منقادين لأمره بالطلوع والغروب على تقدير نظام بديع، تحير العقول في حسنه وكماله.

وفي سورة النحل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[3]

سُكُونُ الليل رَحْمَةٌ إلهيّةٌ:

وقد جاء هذا السكون في **معرض الامتنان على الخلق** قال جل جلاله﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[4] فهو سبحانه هيّا لكم كل ما تحتاجون إليه، من الضياء الذي لا تقوم الحياة إلا به، ففيه قضاء مصالحكم ومعايشكم، ومنافع دينكم ودنياكم، ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور جعل الليل سكناً للهدوء والراحة.

وكلاهما من رحمة الله بالإنسان قال تعالى: ﴿ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾[5]

---

١) سورة الأنبياء، الآية (٣٣).
٢) سورة إبراهيم، الآية (٣٣). ومن العجيب أنهما وردا بنفس رقم الآية.
٣) سورة النحل، الآية (١٢).
٤) سورة القصص، الآية (٧٢).
٥) سورة القصص، الآية (٧٣).

وهناك مصالح أخرى من ذلك الجعل منها معرفة السنين والأيام كما جاء في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾[1] وهذا متعلق بالفعلين جميعاً.

فهو سبحانه الخبير بما خلق، العليم بما يصلح أحوالهم، وما ينفعهم أو يضرهم، فجعل هذه الموازين لكي تستقر حياة المخلوقات، وتعيش بميزان لا اضطراب فيه ولا خلل،﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾[2]، وقال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾[3]

فكل منهما جاء لمنافع الإنسان ومصلحته وسعادته، فالإنسان لا يهنأُ أو يسعَدُ إلا بوجودِ الليل والنهار.

---

١) سورة الإسراء، الآية (١٢).
٢) سورة النمل، جزء من الآية (٨٨).
٣) سورة السجدة، الآية (٦، ٧).

المبحث الثالث

" الزوجة سكن"

جاء الإسلام منهجاً للحياة، فلم يقف عند بيان العقيدة الصحيحة وترسيخها، ولا العبادة وكيفية أدائها، بل شمل الفكر والثقافة والسلوك، وكان من بين القضايا الأساسية التي اهتم الإسلام ببيانها مسألة بناء الأسرة.

الزوجة سكن للرجل:

الزوجة شيء مهم جداً في حياة زوجها، وتأتي أهميتها في كونها سكناً للرجل، فهي التي تخفف عنه همه، وتحمل معه أعباء الحياة؛ ويركن إلى مسامرتها، فينسى همومه ومشكلاته، وتكون سبباً للراحة النفسية، والذرية الصالحة وتكوين أسرة كريمة، وهذا اللون من السكن كما بين القرآن الكريم لا تأتي به إلا الزوجة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في موضعين:

الأول: جاء في قوله تعالى: ﴿**هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا** ﴾[1]

فالنفس الواحدة؛ آدم (عليه السلام)، والتي خُلقت منه؛ حواء. وسكنه إليها؛ ليأنس بها ويطمئن.

ولهذا نجد أن القرآن الكريم يبعث في نفس كل من الزوجين الشعور بأن كلاً منهما ضروري للآخر، ومكمّل له؛ فيقول للرجل :إن المرأة فرع منك وأنت أصلها، ويقول للمرأة: إن الرجل أصل لك وأنتِ جزء منه، ولا غِنى للجزء عن أصله.

قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً** ...﴾[2]

فالحكيم العليم لما أراد أن يزيل الوحشة عن آدم في الجنة، جعل له نفساً يسكن إليها ويسعد بصحبتها وهي حواء، فلم يخلق له أخاً ولا أباً ولا ابناً، أي لم يوجد له مخلوقاً ذكراً من جنسه ليأنس به إنما خلق له أنثى، وما جعل الله

١) سورة الأعراف: جزء من الآية (١٨٩).
٢) سورة النساء: جزء من الآية (١).

هذه الأنثى أماً ولا أختاً ولا بنتاً إنما جعلها زوجة، وخلقها من ضلعه لتكون جزءاً منه، ونشر منهما في أنحاء الأرض رجالا كثيرًا ونساء كثيرات

فلقد جاء عن ابن مسعود وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: "لما أُسْكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلما نام خلقت حواء من ضلعه ليسكن إليها ويأنس بها؛ فلما انتبه رآها فقال: من أنت؟! قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي" [1]

الموضع الثاني؛ صوّر لنا القرآن الكريم فيه مدى الارتباط الغريزي والعاطفي بين الزوجين، وأشار إلى أنه آية من آيات الله ونعمة من نعمه التي لا تُعد ولا تُحصى، قال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2]؛ أي ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق لكم من جنسكم -أيها الرجال- إناثًا تكون لكم أزواجًا؛ لتطمئن نفوسكم إليها وتسكن، ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر كأن يكن من جان أو حيوان، لما حصل ائتلاف بين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة، كما كان من تمام رحمته ببني آدم أن جعل بين الزوجين " مودة ورحمة"، فإن الرجل يمسك زوجته إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو للألفة بينهما، وغير ذلك.[3]

فالحكمة ظاهرة في الآيتين؛ ليسكن إليها، فسكون الزوج إلى زوجه، والزوجة إلى زوجها أمرٌ فطري غريزي، كما أن الرجل مركز أمان للمرأة،

---

١) المحرر الوجيز لابن عطية (١٢٦/١)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣٠١/١).
٢) سورة الروم: جزء من الآية (٢١).
وفي معنى المودة والرحمة ذكر أبو الحسن الماوردي - رحمه الله – في تفسيره (٣٠٥/٤) أربعة أقوال:
أحدها: أنّ المودة المحبة، والرحمة الشفقة.
الثاني: أنّ المودة الجماع، والرحمة الولد.
الثالث: أنّ المودة حب الكبير، والرحمة الحنو على الصغير.
الرابع: أنهما التراحم بين الزوجين.
٣) تفسير ابن كثير (٣٠٩/٦) بتصرف.

ويجمع بينهما المودة والرحمة، وإلا سيقع اضطراب وشقاق وتنافر وطلاق في نهاية المطاف لا محالة.

ومن أهم ما يوفر هذا السكن بين الزوجين؛ تقوى الله والعدالة والأمانة مع الرعاية والاحترام والتقدير والثقة المتبادلة بين الطرفين، فالزوجان يعيشان حياتهما الزوجية في ظلِّ تعاليم الإسلام في انسجام واتحاد، وهي الصفات نفسها التي أطلقها النبي - ﷺ - على المرأة الصالحة فقد جاء في الحديث، أن رسول الله - ﷺ - قال: «مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ».[1]

وفي حديث آخر: قال (ﷺ): «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ».[2]

ولو أن البيوت كلها راعت هذه الأمور لوجدنا فيها الراحة والطمأنينة وغمرتها السعادة، واستراح القضاة وسكنت المحاكم من الصياح والعويل.

ومن عظمة القرآن وكماله نجدُ كل هذه المعاني ما حصرناه، وما لم نحصره متمثِّلاً في قوله تعالى ﴿ **هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ...﴾ [3] فالعلاقة بين الزوجين اللذين كانا يوماً غريبين، عن بعضهما وأجنبيين، أوثق وأقرب وأعمق من علاقة الوليد بأمه؟!

---

١) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٥٩٦)، ح (١٨٥٧)، كتاب النكاح، باب أفضل النساء، والطبراني في المعجم الكبير (٢٢٢/٨)، ح (٧٨٨١)، بَابُ الصَّادِ، عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاتِكَةِ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ.
قال البوصيري في الزوائد: في إسناده على بن يزيد، قال البخاري: منكر الحديث.

٢) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٩٠)، (١٤٦٧)، كتاب الرضاع، بَابُ خَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ.

٣) سورة البقرة، جزء من الآية (١٨٧).
يقول القرطبي - رحمه الله - في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن": أصل اللباس في الثياب، ثم سُمِّي امتزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباسًا، لانضمام الجسدين وامتزاجها وتلازمها؛ تشبيهًا بالثوب.

وعندما يتعامل الزوجان معا بتقوى الله وبالمحبة والرحمة تحصل السكينة، فتطيب النفوس وتأنس، وتصبح ما تجده من آلام خارج تلك البيوت، سكينة في داخل البيوت مما يهون تلك الآلام ويخفف وطأتها على النفوس.

فالزواج في الإسلام؛ سكن للنفس وراحة للقلب، وتعايش بين الرجل والمرأة على أساس من الحب والمودة والرحمة والانسجام والتعاون والتسامح ليستطيعا أن يؤسسا بيتاً وذرية صالحة.

ثم إن العلاقة الزوجية التي يصفها القرآن (بالسكن) لا تعني عدم وجود مشاكل، فالمشاكل من حركة الحياة، وهذا أمر طبيعي، ولكن السكن يعني الطمأنينة والراحة والهدوء، وهو ما يتوافر في الزوجة الصالحة.

ومن العجب أن نرى كثيراً من الناس يجعلون الزواج عادة وتقليداً، ليس ألفة وسكناً؟

ولذا، فالزواج في نظر الشارع ليس وسيلة لحفظ وإبقاء للنسل البشري فقط، ولكن فيه ما هو روحي كالمودة، وما هو مادي كالخدمة والطعام والأمان، وما هو تعبدي كالاستغناء بالحلال عن الحرام بقضاء للوطر فيما أباحه الله، وفيه (البنين) زينة الحياة الدنيا، وكل هذا مجتمعاً يوفر (السكن) النفسي، والهدوء القلبي والوجداني.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد (ﷺ) وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد

رحلة سعيدة بين كلام الله سبحانه وتعالى والإبحار في تفسيره وتحليله، استنتجت من خلال هذا البحث النتائج الآتية:

نتائج البحث

_ اللفظ الواحد قد تتعدد استعمالاته في القرآن الكريم حسب السياق القرآني، فمصطلح السكن يأتي ويراد به الثبوت أو الاستقرار أو اتخاذ مكان للإقامة والمعيشة، كما يأتي بمعنى السكينة والشعور بالراحة والاطمئنان.

_ لفظ السكن يطلق على ما سكنت إليه وما سكنت فيه.

_ جمع الآيات التي اشتملت في مجموعها على لفظ معين، يعصم من الوقوع في الخطأ في التفسير.

_ أشار القرآن الكريم إلى العديد من أنواع المساكن التي اتخذها الإنسان وتكون حسب عصره ومكانه.

_ أول سكن أعده الله تعالى للإنسان، تلك الجنة التي أسكنها لآدم وحواء (عليهما السلام) ثم خرجا منها.

_ حسن معاملة الزوجات، والنهى عن الإساءة إليهن حتى عند إرادة الطلاق وبعده، جاء ذلك بأمور شتى منها؛ الأمر بإسكانهن.

_ نجاة الأبناء من كل ما يُهدِّد كيانهم، ويبعدهم عن الطريق القويم؛ لأنهم ينشئون داخل أسرة مستقرة لا غش فيها ولا خداع.

_ القرى الظالمة التي نزل العذاب بها، منها ما بقيت آثارها بعد هلاك أصحابها؛ كالزرع القائم على ساقه في الأرض، ومنها ما مُحِيَتْ آثارها بدمار ديارهم ومساكنهم وزوالها بأهلها، فصارت كالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه ولم يبق منه باقية.

_ من الظلمة من سكن في مساكن الظالمين، ولم يعتبر بما حلّ بهم من هلاك وعقوبة، ومنهم من لم يسكن بيوتهم أو يراها، لكنه صار على دربهم في الظلم والطغيان.

_ عدم انشغال المسلم بنعمة السكن عن مطلوب المنعم؛ أو الاغترار به؛ لأنه لا يضمن بقاؤه، وإن أمن له بقاؤها فلا يضمن حياته.

_ المَسْكَنة: ضعف وفقر وحرص على طلب الدّنيا، وهذا اللفظ لم يرد في القرآن إلا مع بني إسرائيل.

_ المساكن الموجودة في الجنة ليست على لون واحد؛ فمنها القصور والخيام والغرف والبيوت وغيرها.

_ السكن لم يرد في القرآن الكريم مع أهل النار كما جاء مع أهل الجنة؛ لأنه لا يوجد فيها راحة جسدية أو معنوية.

_ القرآن الكريم والمعاجم العربية؛ أثبتا أن (المأوى والمثوى) كلمتان تدلّان على مكان اللجوء ومكان الإقامة أو المقر، دون ارتباط بجنة أو نار.

_ جميع ما خلق الله تعالى يُسِّر له أمره، وسُهّل له سبيله في البناء، ليكون ملاذاً له ولتسمر الحياة، وهذه الهندسة المعمارية معجزة من معجزات الخالق التي وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة تجعل كل ذي عقل من البشر يخر ساجداً للخالق العظيم.

_ بيت النحل أكثر الأشكال الهندسية دقة من حيث عدم ترك أي مساحات خالية، أو وجود خلل، فهو في غاية الروعة والتنظيم.

_ التعبير في القرآن الكريم عن بيوت النمل بلفظ المساكن؛ لأنها دائماً في حالة حركة، والحركة عكسها السكون، وتعبير (المسكن) يوحى بالراحة والطمأنينة بعد الجد والتعب طوال النهار.

_ التعبير في القرآن الكريم عن مسكن النمل بصيغة الجمع؛ لتوحي بأنها لم تقتصر على فن واحد في عمارة بيوتها، بل هناك أنواع أخرى من البيوت في أماكن مختلفة من البيئة.

_ من المعاني المجازية التي أتى بها مصطلح " السكن"؛ دعاء النبي (ﷺ) لصحابته بالرحمة والمغفرة وقبول صدقتهم.

_ السكن في الليل يحصل فيه سكون الجسم براحته من تعب العمل بالنهار، وسكون النفس بهدوء الخواطر والأفكار.

_ الزواج في الإسلام؛ سكن للنفس وراحة للقلب، وتعايش بين الرجل والمرأة على أساس من المودة والرحمة والتعاون والتسامح ليستطيعا أن يؤسسا بيتاً وذرية صالحة، وإلا سيقع اضطراب وشقاق وتنافر قد يصل الأمر في نهاية المطاف إلى الطلاق.

التوصيات

١_ عدم الاغترار بالسكن؛ فالذين تفاخروا به في دنياهم، وظنوا أنه يغني عنهم من الله شيئاً، لم ينفعهم عند نزول العذاب؛ وقُلبت المِنح إلى مِحن وتبدلت الأحوال.

٢_ العبرة والاتعاظ والاعتبار بما حدث للسابقين؛ لأنه إذا كنا قد أمرنا بالإسراع عند المرور بأرضهم فما ظنك بمن عمل مثل عملهم.

٣_ تحذير الناس من الترف الذي لا يتبعه شكر، والتكبر الذي يؤدي إلى الهلاك، فكم من أمة كانت ذات صولات وجولات، بيد أنها لما كفرت بأنعم الله أذاقها الله لباس الجوع والخوف، فأصبحت ضعيفة بعد أن كانت قوية، وفقيرة بعد أن كانت غنية، وهذه السنَّة كما تنطبق على الأمم فإنها أيضاً سارية على مستوى الأفراد.

٤_ البيت يجب أن تكون فيه الراحة الجسدية والسكينة النفسية، فلا يصح أن يكون مكاناً للشقاق والخصام، لأن الشقاق والخصام ينافي كونه «سكنا»، هكذا يريده الإسلام.

٥_ أن يعيش الأزواج حياتهم الزوجية في ظلِّ تعاليم الإسلام؛ بتحقيق التقوى والعدالة والأمانة مع الرعاية والاحترام والثقة المتبادلة بين الطرفين، ولو أن البيوت كلها راعت هذه الأمور لوجدنا فيها الراحة والطمأنينة وغمرتها السعادة، واستراح القضاة وسكنت المحاكم من الصياح والعويل.

وبعون من الله وتوفيق كان هذا البحث الذي حاولت أن أعرض فيه تناول القرآن الكريم لمصطلح (السكن)، وهو غيض من فيض ولولا الإيجاز الذي اضطررت إليه لاحتمل زيادة الكثير من الصفحات.

والله اسأل أن يجعل بحثي هذا مقبولاً، كما أساله سبحانه المغفرة فيما أكون قد قصرت فيه، وأن يكتب لي من الخير نصيباً وأن يبارك في هذا الجهد المتواضع إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلِّ اللهم على نبينا محمدٍ صفوة خلقه، وعلى آله وصحابته الأخيار، والتابعين إلى يوم الدين.

أهم المصادر والمراجع

_ القرآن الكريم.

كتب التفسير

_ أحكام القرآن، المؤلف: علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى: ٥٠٤هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

_ أحكام القرآن، المؤلف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، عدد الأجزاء: ٣

_ أحكام القرآن، المؤلف: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

_ أحكام القرآن الكريم، المؤلف: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، الناشر: مركز البحوث الإسلامية، إستانبول، الطبعة: الأولى

_ أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ

_ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

_ البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

_تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى:

١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، عدد الأجزاء: ٣٠.

_ تفسير الشعراوي – المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، عدد الأجزاء (٢٠).

_ تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، الناشر: دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

_ تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩

_ تفسير المراغي، المؤلف فضيلة الشيخ/ أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، الناشر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، عدد الأجزاء: ٣٠

_ تفسير المنار، المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م، عدد الأجزاء: ١٢

_ التفسير الوسيط للقرآن الكريم، المؤلف الأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي، شيخ الأزهر السابق، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر: ١٩٩٧

_ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

_ الجامع لأحكام القرآن، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)،

الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، عدد الأجزاء: ٢٠.

_ الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

_ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، الناشر: دار القلم، دمشق.

_ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر – بيروت.

_ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

_ زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢

_فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ

_ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م، عدد الأجزاء: ١٠

_ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ، عدد الأجزاء: ٤

_ محاسن التأويل، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

_ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢

_ مدارك التنزيل وحقائق التأويل، المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، عدد الأجزاء: ٣

_ معالم التنزيل في تفسير القرآن، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ)، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، عدد الأجزاء: ٨.

_ مفاتيح الغيب، أو المسمى بالتفسير الكبير، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

_النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان.

_الوسيط في تفسير القرآن المجيد، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م عدد الأجزاء: ٤

كتب السنة

_ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ، عدد الأجزاء:٩

_ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت.

_ سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، عدد الأجزاء: ٢

_ سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، عدد الأجزاء: ٥

_ سنن الدارقطني، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي (المتوفى: ٣٨٥هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م

_ السنن الواردة في الفتن وغوائلها والساعة وأشراطها، المؤلف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ)، المحقق: د. رضاء الله بن إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة، الرياض.

_ صحيح ابن حبان، المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، (المتوفى: ٣٥٤هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

_ صحيح ابن خزيمة، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، عدد الأجزاء: ٤

_ صحيح الجامع الصغير وزياداته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي، عدد الأجزاء: ٢

_ فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء: ١٣

_ الفتن، المؤلف: أبو عبد الله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي (المتوفى: ٢٢٨هـ)، الناشر: مكتبة التوحيد – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٢، عدد الأجزاء: ٢

_ فيض الباري على صحيح البخاري، المؤلف: (أمالي) محمد أنور شاه الكشميري الهندي (المتوفى: ١٣٥٣هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، عدد الأجزاء: ٦

_مسند أبي داود الطيالسي، المؤلف: أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى (المتوفى: ٢٠٤هـ)، الناشر: دار هجر – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م.

_ مسند إسحاق بن راهويه، المؤلف: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي (المتوفى: ٢٣٨هـ)، الناشر: مكتبة الإيمان - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ – ١٩٩١، عدد الأجزاء: ٥.

_ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

_ مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، عدد الأجزاء: ١٨

_ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، عدد الأجزاء: ٥

_ المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

_ منحة الباري بشرح صحيح البخاري المسمى «تحفة الباري»، المؤلف: زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، المصري الشافعي (المتوفى: ٩٢٦ هـ)، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

كتب علوم القرآن

_ أسباب نزول القرآن، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ، عدد الصفحات: ٥٠٨

_ إعراب القرآن، المؤلف: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ)، الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ

_ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز أبادي، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

_ الحجة في القراءات السبع، المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الناشر: دار الشروق – بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١ هـ، عدد الصفحات: ٣٨٥

_ حجة القراءات، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة (المتوفى: حوالي ٤٠٣هـ)، عدد الأجزاء:١

_ الحجة للقراء السبعة، المؤلف: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (المتوفى: ٣٧٧هـ)، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق / بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ٧

_ السبعة في القراءات، المؤلف: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (المتوفى: ٣٢٤هـ)، المحقق: شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف – مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ

_ كتاب فيه لغات القرآن، المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ)، عام النشر: ١٤٣٥هـ، عدد الصفحات: ١٦٣.

_ معاني القراءات للأزهري، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

_ معاني القرآن وإعرابه، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ ،١٩٨٨ م، عدد الأجزاء: ٥

_ المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى: ٥٠٢هـ)، المحقق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

_ النشر في القراءات العشر، المؤلف: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، (المتوفى: ٨٣٣ هـ)، المحقق: علي محمد الضباع (المتوفى ١٣٨٠ هـ)، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى.

كتب اللغة

_ تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، الناشر: دار الهداية.

_ تهذيب اللغة، المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م، عدد الأجزاء: ٨.

_ جمهرة اللغة، المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م، عدد الأجزاء: ٣

_ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧.

_ العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: ٨.

_ لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة ،١٤١٤ هـ، عدد الأجزاء: ١٥

_ مختار الصحاح، المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، عدد الأجزاء: ١

_ معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، عدد الأجزاء: ٦

_ كتب الرقائق والآداب والأذكار

_ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

_ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، عدد الصفحات: ٣٠٧

_مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

كتب الفقه

_ الأم، المؤلف: الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت، سنة النشر: ١٤١٠هـ/١٩٩٠م

_ الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، المؤلف: علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية.

_ جامع المسائل لابن تيمية، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

_ العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية، المؤلف: ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ)، الناشر: دار المعرفة.

_ المبسوط، المؤلف: محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت، تاريخ النشر: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: ٣٠

_ مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م

_ المغني، المؤلف: موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الدمشقي الصالحي الحنبلي (٥٤١ - ٦٢٠ هـ)، الناشر: دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

كتب عامة ومواقع إلكترونية:

_ القرآن محاولة لفهم عصري" للطبيب مصطفى محمود، الطبعة الثامنة، دار المعارف،١٩٩٩م.

_ موقع/ إعجاز القرآن والسنة، مقال: إعجاز وصف الظل والظلال في القرآن الكريم، للأستاذ الدكتور / زغلول النجار.

_ الموسوعة الفقهية الكويتية، الصادرة عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، عدد الأجزاء: ٤٥ جزءا.

_ موقع: موسوعة الإعجاز في القرآن والسنة.

_ موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للأستاذ الدكتور/ محمد راتب النابلسي.

_ آية في القران الكريم تشير إلى حقيقة علمية دقيقة عن بيت العنكبوت، بحث للدكتور زغلول النجار تم نشره في جريدة الأهرام.